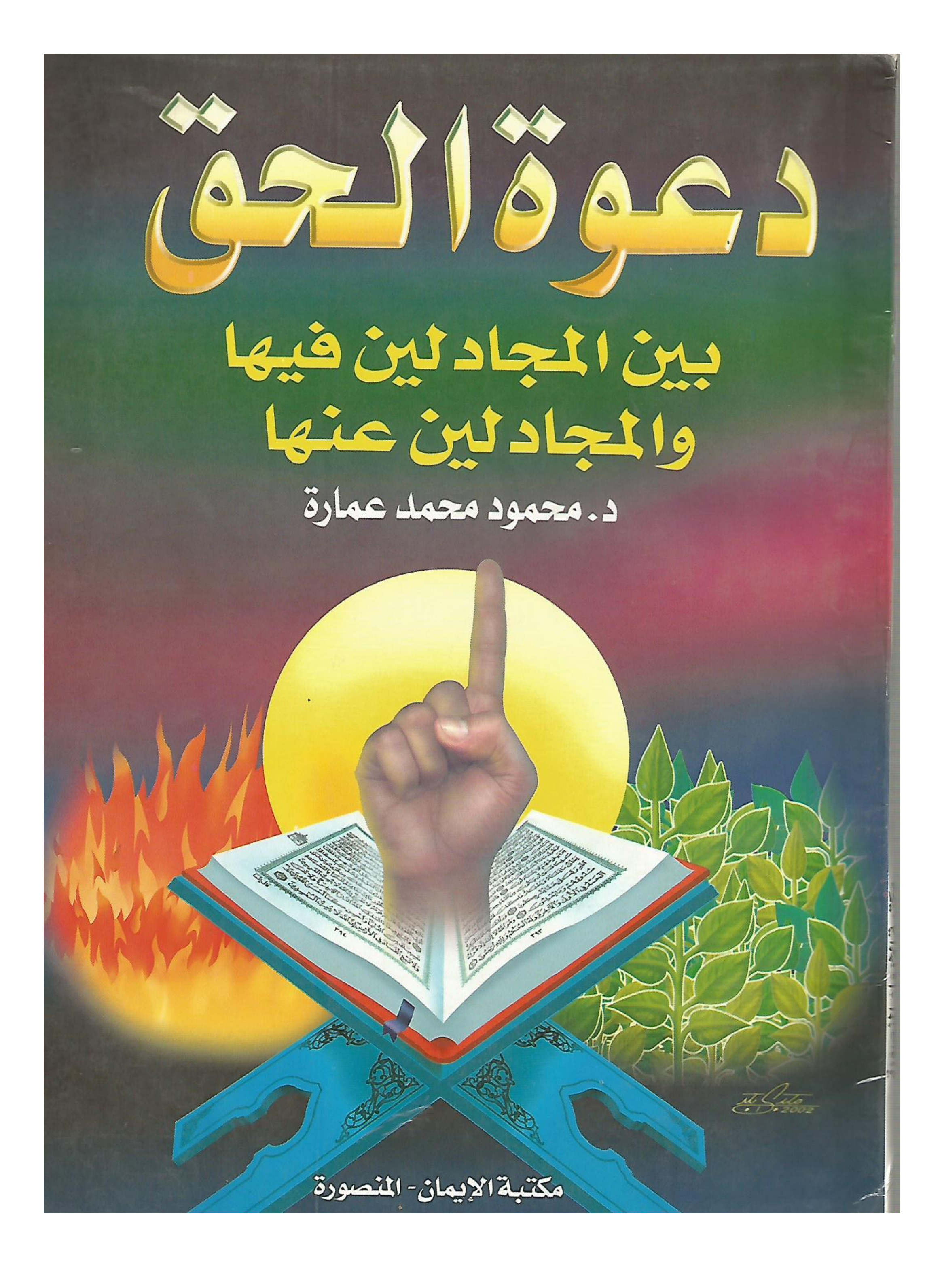

دعوة الحق
بين المجادلين فيها
والمجادلين عنها
د. محمود محمد عمارة
مكتبة الإيمان - المنصورة

دعوة الحق

بين

المجادلين فيها والمجادلين عنها

د. محمود محمد محمد عمارة

الناشر
مكتبة الإيمان
المنصورة ☏ ٢٢٥٧٨٨٢

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٣
الفصل الأول من ضوابط الحوار	٥
مدخل	٦
ضرورة الاختلاف	١٣
كيف يعاملنا خصومنا ؟	١٦
من حيل المعاندين	٢٥
من أعمالهم سلط عليهم	٣٠
إلينا أيها الحائرون	٣٨
أمتنا بين النصيحة والانتصاح	٤٤
الفصل الثانى من سلبيات الحوار	٥٥
من سلبيات الحوار الغرور	٥٦
تحرير الحوار من آفة الغرور	٥٩
حوار القمم	٦١
من صور الجدال بالتى هى أحسن	٦٤
طبيعة الحوار ومستويات المدعوين	٦٧
الفصل الثالث حوار أهل الكتاب والمشركين	٧١
طبيعة الجدال مع أهل الكتاب	٧٢
موقف الإسلام من أهل الكتاب	٧٥
من حيل العلماء	٨٠
سنة الاختلاف	٨٥
صلة المسلم بالعلماء والأمراء	٨٩
من أهداف المبطلين	٩٢
من آداب الحوار	٩٧
تأملات فى سورة الأنعام	١٠٤
القضية وأبعادها	١٠٦
من تصحيح المفاهيم	١٠٨
البرهان العملى	١١٥
توظيف خاطئ لمواهب الفطرة	١١٨
قتل الأولاد والوفر النسبية	١٢١
نقد كتاب أسماء الله وصفاته	١٢٩
حوار الأديان وليس مصالحة الأديان	١٣٠
مناقشة المؤلف	١٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

تحت عنوان «آداب الحوار فى الإسلام» كانت أحاديث أبثها عبر إذاعة القرآن الكريم.

وقد صدر الجزء الأول منها فى كتاب أسميته : من أجل حوار لا يفسد للود قضية .

وهذا هو الجزء الثانى من هذه الأحاديث يصدر تحت عنوان :

{ دعوه الحق: بين المجادلين عنها } .. وهو امتداد للكتاب الأول .. يدور معه حول نفس المعانى التى تؤكد أن الجدال كالنزال :

كلاهما : كرّ وفرّ .. ودفاع وهجوم . كما يقول أستاذنا الشيخ محمد عبد الله دراز .

وذاك الكرّ والفرّ .. وهذا الدفاع والهجوم .. ما يزال سارى المفعول بين المحقين.. والمبطلين .. وإلى يوم الدين.

الأمر الذى يفرض علينا بيانه إرادة الانتفاع به اليوم .. وتأمل ما يسفر عنه من دروس.. يزداد بها الباطل افتضاحاً .. بقدر ما يتبخر الحق بها .. اتضاحاً .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

د. محمود محمد محمد عمارة

الفصل الأول

من ضوابط الحوار

مدخل

فى مستهل الدعوة الإسلامية .. تفنن المشركون فى إيذاء المسلمين .. إرادة فتنتهم فى دينهم ..

لكن نتائج التعذيب كانت على غير ما يشتهى المعتدون :

فقد ازداد المسلمون استمساكا بالعروة الوثقى .. وكلما زادهم المشركون عذابا.. كلما فتح اللّٰه للفرج أبوابا .. بل ودخل الناس في دين اللّٰه أفواجا ..

وعندئذ .. قرر المعتدون تعديل خطة التعامل مع المسلمين .. فقرروا أن يجربوا مع الرسول ﷺ أسلوب الحوار.. أسلوب المفاوضات .. فلعله أن يكون أجدى . وفعلا .. اجتمع الملأ من قريش فى دار الندوة .. وأداروا آراءهم التى استقرت على اختيار داهية من دهاتهم .. ممن يجيدون صناعة الكلام وهو : عتبة بن أبى ربيعة .. بعد أعرض هو ابتداء أن ينوب عنهم فى لقاء محمد ﷺ بقوله :

يا معشر قريش:

ألا أقوم لمحمد فأكلمة وأعرض عليه أموراً . لعله يقبل بعضها .. ويكف ؟

وإذا كان اللجوء إلي أسلوب الحوار نقطة ضعف محسوبة على التحالف الباغى.. فقد كان هناك ما هو أنكى .. من حيث إنهم فوضوا عتبة ليفاوض الرسول ﷺ ... وبلا شروط مسبقة ..

فالمهم أن يكف عنهم ..

والتنازل عن الشروط استسلام من طغاة الأمس.. رضاً مسبقاً بما يقرره الرسول ﷺ .. وتأمل كيف يقسو الظالم .. ثم يكون من عقاب ظلمه أن يجد نفسه تحت رحمة عدوه . الأعزل .. الصامت . والذى لا يملك إلا السكوت ردا على هجمة الغاشمين؟ ..

إنها هيبة النبوة تكسر أنف المختالين .. وها هو ذا محمد ﷺ . بلينه وحلمه.. لا يبيع هيبة السكوت بالرخيص من الكلام :

إذا لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد .. سداد

إنه السلوك الحميد .. فى كل موقف بما يناسبه:

مع العالم .. زيادة فى العلم ..

ومع الجاهل .. زيادة فى الحلم

وبدأ الحوار

يقولون : إن من أعظم المصائب : أن تقدر علـى المعروف .. ثم لا تصنعه حتى يفوت .. والمعروف هنا أن ترى العدو من نفسك قوة .. فى الوقت الذى يجند جنده لشل إرادتك .. والتفريط فى رسالتك.

وهو الأمر الذى نجح ﷺ فـيه نجاحـا كان فى ذاته درسـا فى الثبات والتـجرد أمضى من كل سلاح ..

والقصة كما رواها الحاكم والبيهقى وغيرهما :

{ اجتمع قريش يوما فقالوا :

انظروا أعلمكم بالسحـر . والكهانة والشعر .. فليـأت هذا الرجل : الذى فرق جماعتنا . وشتت أمرنا . وعاب ديننا . فليكلمه . ولينظر ماذا يرد عليه؟ . فقالوا : ما نعلم أحدا غير عنبسة بين ربيعة فقالوا :

إئت يا أبا الوليد . فأتاه . فقال :

يا محمد : أنت خير أم عبد اللّه؟ .. أنت خير أم عبد المطلب ؟

فسكت رسول الله ﷺ . قال عتبة :

فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك .. فقد عبدوا الآلهة التى عبت . وإن كنت تزعم أنك خير منهم .. فتكلم .. حتى نسمع قولك .. أما واللّه ما رأينا سخلة[1] قط أشأم على قومك .. منك :

(١) السَّخلة : ولد الغنم من الضأن والمعْزِ ساعة وضعه ذكرا كان أو أنثى . ج : سَخْل وسِخال .

فرقت جماعتنا . .

وشتت أمرنا . .

وعبت ديننا . .

وفضحتنا فى العرب . . حتى لقد طار فيهم : أن فى قريش ساحرا وأن فى قريش كاهناً .

والله ما تنتظر إلا مثل صيحة الحبلى . . حتى يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف .

يا رجل :

إن كان إنما بك الحاجة . . جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً . . وإن كان إنما بك الباءة . . فاختر أى نساء قريش شئت . . فنزوجنك عشراً .

فقال رسول الله ﷺ :

أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم .

فقال رسول الله ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ .كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ حتى بلغ :

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ .

فقال عتبة :

حسبك . . حسبك . . ما عندك غير هذا ؟!

فقال : لا

فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ قال :

ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلم به إلا كلمته . فقالوا:

فهل أجابك ؟ قال :

ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . قالوا :

ويلك .

يكلمك الرجل بالعربية . . وما تدرى ما قال ؟!! قال :

لا واللّه . ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة .

وفى رواية أنه قال :

يا قوم : «أطيعونى فى هذا اليوم . واعصونى بعده . فواللّه لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت قط . كلاما مثله . وما دريت ما أرد عليه » (١) .

مغزى هذا الحوار

١- الأمور التى اقترحها مندوب قريش عروض سخية مغرية : عروض سياسية . واجتماعية . واقتصادية . يسيل لها لعاب عشاق الدنيا .

٢- وقد لاحظ العلماء إلى جانب ذلك قوله فى الرواية الأخرى : [وإن كان الذى يأتيك رئى من الجن] لاحظوا أنهم . يريدون أن يقولوا له : كما قيل : عجيب أمرك يا محمد : يعرض عليك كل هذا . . ثم لا تقبل ؟! فأنت إذن مجنون وتحتاج إلى علاج . .

٣- ولقد كان منطق الوليد غشوما ظلوماً . . محرجاً أحياناً : يراوح بين الترهيب والترغيب . . لعل وعسى . .

٤- ومن وراء المفاوض الوثنى قاعدة صلبة تملك من وسائل التأثير ما تملك . . ومستعدة فى نفس الوقت للبذل من أجل إسكات صوت الحق .

موقف الرسول ﷺ

إذا كانت العروض القرشية مغرية مجزية لدى طلاب الدنيا . .

فإن للداعية معها شأنا آخر :

١- لقد استبعد الداعية أسلوب المخاشنة ابتداء . . إنه لم يرد بسلاح القوة . .

(١) راجع فتح القدير.

فقريش أقوى منه . ولم يخاشنهم بالقول . . فهم أصلاء فى البذاء والجفاء . .

٢- لقد اختار المفترون للحوار أمثلهم طريقة . . فليكن الداعية على مستواه . . بل فوق مستواه . . لقد بدت حكمة المفاوض الوثنى فى قوله : لعلك . . تقبل . . بعضها . . فلم يكن واثقاً من تحقيق أمله . . وإنما هو على رجاء ذلك . . ثم إن الرسول هو صاحب قرار القبول أو الرفض . . وهم لا يطمعون فى قبول كل المقترحات . . ولكنهم راضون ببعضها . .

٣- وإذن . فقد كان ولابد لمن يمثل وجهة النظر الإسلامية أن يكون مدركاً ما وراء هذا المنطق المعسول . . لكى يحبط أثره . . بالهدوء والحكمة : ذلك بأن الشجاعة ليست فقط في أن تموت . . فى سبيل الحق . .

وإنما هى أن تعيش فى سبيله . . وليست الحكمة فى سرعة الرد . . مهما كان ذلك الرد . . . فليست أحسن أفكارك هى أول ما يخطر على بالك . . .

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

٤- وقد بدت مظاهر هذه الحكمة فى سكوته ﷺ . . لما صب عليه الوليد غضبه . ثم فى سكوته إزاء هذا السؤال المحرج وهو :

أنت خير أم عبد اللّه ؟ . أنت خير أم عبد المطلب؟.

وإذا كانوا يقولون:

قد اختار الألم . . من يمسك بالقلم . .

فقد اختار ﷺ ألم الاصطبار على ضغوط الموقف . . وانحنى للعاصفة الهوجاء . . حتى يفرغ المحاور كل ما عنده . . ليجىء الجواب منه بعد ذلك مسكتاً .

٥- ومع أن العروض كانت مغرية . . إلا أن المحاور المسلم يريد هزيمة خصمه نفسياً . . وفى نظر نفسه حين يرفض كل مقترحاته . . مؤكدا له أن هناك ما هو أغلى من كل عروضه وهو : الدعوة .

الدعوة التى يستعذب فى سبيلها العذاب . .

وقد يتكلف أناس الزهد المغشوش .. ذلك الذى يدعونه حين لا تكون هناك مغريات ..

أما إذا ناوشتك المغريات .. ومن قريب . ثم تأبيت عليها .. فذلك هو الزهد حقاً !!

وذلك هو ما فعله ﷺ : إن همه الأكبر هو : الدعوة .. ولن يتراجع عنها .. مهما كان حجم الإغراء .

كيف يعود إلي ملتهم بعد أن نجاه اللّه تعالى منها :

هل رأيت أو سمعت براع رد فى الضرع ما قرى من حلاب ؟!!

٦- ويعنى ذلك أن هذه الدعوة أعز من أن يحتويها أحد .. أو يساوم عليها ماكر.

٧- ولاحظ فى سلسلة الهجوم عليه ﷺ اتهامة بما هو منه براء .

ومع ذلك لم يسمح لنفسه أن يضيع وقته فى الدفاع عن نفسه . ولكنه وفى أدب المحاور :

يفتح صدره لوجهة النظر الأخرى ..

وهى وجهة نظر باطلة .. فمسافة الخلف شاسعة واسعة بينه وبين محاوره ..

وليست خلافا مع مسلم مثله فى سنة من السنن ..

لم يقاطعه .. لكنه تركه يفرغ كل شحنته ..

وحتى بعد أن فرغ .. يبقى بعد آخر من أبعاد الحوار فى منطق الإسلام وهو التودد إلي المخالف .. بل واستئذانه فى أن يرد عليه . وذلك قوله ﷺ وهو يناديه بأحب الأسماء إليه : أفرغت .. يا أبا الوليد ؟

٨- وتلك هى الجملة الوحيدة التى نطق بها ﷺ .. ثم خلى بين الرجل وبين آى سورة «فصلت» لتجهز على البقية الباقية من عناده ... ثم ليعود إلى قومه كاسف البال .. يجرجر أذيال خيبة هم أحق بها وأهلها !

٩- وما زلت أستدعى من ذاكرتى ما لاحظه شيوخنا تعليقا على هذا الموقف تعليقا على هذا الموقف تعليقا لا التبسيط .. والتوضيح .

أ - إن شخص الداعية هنا ينصهر فى الدعوة .. يذوب فيها .. وإذا لم يدافع عن نفسه .. وآثر الدفاع عن الدعوة .. فإن اللّه تعالى يدافع عنه .. لأنه تعالى يدافع عن الذين آمنوا .

ب - ومن مظاهر فشل القوم : أن الأقوى هو الذى يقترح والأضعف هو الذى يرفض .. ويعني ذلك : أنه ليس هناك من هو أقوى من الحق مهما جند الباطل من جنود وحشد من حشود..

جـ- ومن حكمة الداعية أن يلجأ إلى القرآن .. وفى اللحظة الحرجة فى محاولة لحسم القضية .. ارتفاعا بها فوق المراء .. الذى يراد به التشويش وإضاعة الوقت .

١٠- ولعل أقسى ما أصاب المعتدين هو رجوع المفاوض الوثنى بوجه غير الوجه الذى ذهب به ..

بل بقلب غير القلب .. الذى ذهب به .. ثم كانت وصايته أن يطيعوه .. ولو مرة واحدة فى العمر .. ويتركوا محمداً وشأنه ..

ألا إن هذا لهو النصر المبين .. أن ينصر اللّه تعالى هذا الدين بالرجل الفاجر . أن يقف المبطل إلي جانب المحق .. ضد المبطل نفسه .

ضرورة الاختلاف

الاختلاف سنة من سنن الكون . . يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] . فاختلاف البشر آية من آيات اللَّه تعالى الدالة على قدرته وحكمته وسبحانه وتعالى .

بل إن بعض العلماء قد ذهب إلى أن الاختلاف هو الغاية من خلق الناس . . مستشهدين بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود:١١٨ - ١١٩] .

وقال البطليوسى فى «التنبيه»:

[ونبهنا ألطف تنبيه . على ما فى هذا الخلاف الموجود فى البشر . . المركوز فى الفطر . . من الحكمة البالغة . وأنه جعله إحدى الدلائل على صحة البعث الذى أنكره من ألحد فى أسمائه وكفر بسوابغ نعمه . فقال . وقوله الحق . ووعده الحق .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ [النحل :٣٨-٣٩].

الاختلاف نتيجة الحرية

إن قيمة الحرية لابد مفضية إلي الاختلاف فى وجهات النظر . . هذه الوجهات التى تتعدد بتعدد الرؤية . .واختلاف الأمزجة . . ومن ثم فهو مظهر من مظاهر الحياة والتنوع . . ولولاه لكان البشر قالبا واحدا فلم تر إلا مكررا . . معادا. . مملولا . .

واقعية الاختلاف

يقول أحد الباحثين :

[إن الاختلاف بين الناس واقع . وحقيقة واجبة . ذلك . . أنه لا يمكن لإنسان ما أن يكون نسخة من غيره طبق الأصل . فالناس داخل المجتمع الواحد مختلفون فى

أشكالهم . ومظهرهم وتفكيرهم . وطباعهم وميولهم . وإنتماءاتهم .

بحيث يشكل كل فرد حقيقة قائمة بذاتها . مختلفة عن غيرها :

لا يوجد فى العالم شخصان متشابهان فى كل شىء. إن ميزة الإنسان أنه صاحب «هوية » لا يمتلكها سواه . إنه فريد : أى : لا مجال للاستعاضة عنه بمثله :

أن أكون أنا . . يعنى :

أن أكون بشكل ما . . مختلفا . .

غير أن اختلافى عن الآخر لا يعنى أننى متفوق عليه . أو متخلف عنه .

فمنطق التنوع لا يقع فى نطاق معايير القياس . . بل يستدعى البحث عن سر التكامل والتناغم } [١] .

الاختلاف إذن بين البشر إذن ضرورة حتمية . . بل هو رحمة مهداة . ونعمة مسداة ينبغى أن نستمتع بها . .

لكنه الاختلاف المحكوم بآداب الإسلام . . والذى يصدر عن النيه الخالصة التى بها نستهدف تحقيق الحق . وتمحيق الباطل . .

الاختلاف المحمود والاختلاف المذموم :

ومن أجل ذلك انقسم الاختلاف إلى محمود ومذموم بحسب التزام المتناظرين بأداب الإسلام أو تخيهم عنها .

يقول ابن حزم فى رده على ما نعى الجدل :

{واحتجوا في إبطال الجدال والمناظرة بآيات ذكروها .

وهى قوله تعالى :

﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ . وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ { الشورى : ١٥ - ١٦} .

---

(١) العربى / ٨ / ٢٠٠٠.

ولكن ابن حزم يوجه الآيات وجهة أخرى تنسجم مع ما اتفق العقلاء من حتمية الاختلاف . . وما يترتب عليه من جدل وتدافع . . فيقول :

وهذه الآية مبينة وجهة الجدال المذموم وهو : فيمن يحاج بعد ظهور الحق . وهذه صفة المعاند للحق . الأبى من قبول الحجة بعد ظهورها وهذا مذموم عند كل ذى عقل .

ومن الآيات التى احتجوا بها قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف : ٥٨] .

يقول ابن حزم :

[وإنما ذم اللّه تعالى فى هذه الآية من خاصم وجادل فى الباطل].

ثم يقول :

فلما وجدنا اللّه تعالي قد أمر فى الآيات التى ذكرنا بالحجاج والمناظرة . . ولم يوجب قبول شىء إلا ببرهان . . وجب علينا تطلب الحجاج المذموم . . فوجدنا اللّه تعالى قد قال :

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [الكهف :٥٦].

«قدم اللّه تعالى - كما ترى - ذم الجدال بغير حجة . والجدال فى الباطل. ثم قسم ابن حزم الجدال المذموم إلى قسمين :

١- من جادل ناصرا للباطل . بشغب وتمويه بعد ظهور الحق فيه] [1].

وإذن . . فلا بأس من الاختلاف . . إذا كان سبيلنا فى النهاية إلي الائتلاف . . ثم الالتفاف حول ما أسفر عنه الجدال من الحق . . الذى يجب التسليم به . . ثم لنقف جميعا فى خندق واحد . . ندافع عنه . . بل ونموت فى سبيله .

---

(١) راجع الأحكام لابن حزم ج / ١/ ٢٠٠.

كيف يعاملنا خصومنا ؟

أولاً : فى محاولة الحكم علينا :

يصدرون فى تقييمنا عن الهوى . ثم التغافل عن ماضينا . ثم التعامى عن كل ما قدمته حضارتنا إليهم . . بالذات !

كل ذلك فى حركة :

تزاحمنا على الطريق . بل إنه التعويق الذى يستهدف إزاحتنا بالمرة حتى ينفردوا به .

واجبنا :

وواجبنا يفرض علينا : أن نستمسك بشعرة معاوية : فلا ننكر الرأى الآخر . ولا نزدرية :

{ فالحضارة الغربية فرضت نفسها . . ولا يمكن إنكارها . وإذا لم نتفق معها بجملتها فلا يمكن إغفالها . وعلى العاقل الحصيف أن يتلمس أسباب التفاهم معها . وأن يقيم الحوار مع عقلائها. وأن يميز بين المعتقد الذى لا نقبل المساس به . وبين أوجه المعاش التى تحترم ما أصله الغرب فى ميدانها }.

خطر تحكيم الانفعال :

وإذا كنا حراصا على أن يأخذ الحق مجراه إلى هدفه . . فلابد أن نكون على مستوى هذا الحق . . وبالارتفاع إلى مستوى الحق {ليس بالإدانة أو بالانفعال . أو رفع الشعارات دفاعاً عن الإسلام . لا . . بل بنقد ذواتنا . وحسن عرض بضاعتنا. . تجارتنا . فلا يزايد أحد علينا . أو يبيع على بيعنا . . ونعود أخيراً برضاء اللّه تعالى فى رحالنا } الرابطة فبراير / ٢٠٠٠.

ويعنى ذلك :

{ أن يتخلص الخطاب الإسلامى من نبرات الانفعال والتشنج . فكثيراً ما تفوت فى غمراته فرص هائلة لخدمة الإسلام والكشف عن مزخور فضائله وشمائله . . فى

جو من الهدوء والتأمل والاقتناع فرحابة صدر حضارتنا تتسع لأى قيم ومنتجات حضارية ذات معنى إنسانى سام دون ما صد أو نفور أو امتصاص } . «نفس المصدر».

ولقد احتفظ التاريخ لنا بلقاءات تمت بين الحضارت. . كان الحوار المنصف سبيلها إلى تحقيق لون من التعايش لابد منه . . رغبة فى أمن سابغ يرفرف على الطرفين .

ومما تعيه ذاكرة التاريخ :

{ ذلك الجدال الذى كان بين البطريق اليعقوبى يوحنا . وعمرو بن العاص فاتح شمال سوريا ومصر - وهو أول جدل بين المسلمين والمسيحيين . وقد عدد يوحنا مآثر الكنيسة الأُرْثُوذُكْسِيَّة} .

وتمكن من نشر مواعظ على هيئة أسئلة وأجوبة . تساعد المسيحى على أن يرد على العربى المسلم فى جداله حول الدين . . وقد اهتم أكثر من خليفة إسلامى بمجالس الجدال : من ذلك ما حدث فى مجلس المأمون ببغداد سنة ٨٦١ . حين جلس عبد المسيح بن إسحاق الكندى . يجادل عبد اللّه بن إسماعيل الهاشمى . وأخذ كل منهما يدافع عن دينه فى أدب وهدوء }. . {فى الطريق إلي فهم الإسلام } د. هـ ح دورمان وفى بيان ثمرات هذا الجدال ما قاله أحد القادة المسلمين:

{ إن اختلفت عقيدتنا : فإن خالقنا واحد. وأبانا واحد . يجب أن نتآخى : لا بسبب عقيدتنا . ولكن لأننا كلنا بشر . فلنتذكر إذن أبانا المشترك . ولنطعم إخوتنا}.

كيف نواجه خصومنا ؟

لما كان خصومنا يواجهوننا بذكاء . . وحيلة . . ولما كانوا يرموننا مجتمعين . . عن قوس واحدة . . فقد وجب عينا أن نتسلح للمعركة الفكريه بأسلحتها والتى منها:

اليقظة والحذر . .

ثم بنقد الذات ولَمِّ الشمل . وتوحيد الصف .

ثم استخدام الحيلة كوسيلة من وسائل الدفاع.

من مسئوليات الناصح

[ينبغى على المسلم : ألا يتعجل المضى فى طريق لم تتبين معالمه . حتى يثبت أنه الحق . فإذا يتقن منه .. مضى فيه . وثبت عليه . وليس من القصد فى شيء متابعته لغيره فى غير تبين . ولا أن يظل مترددا لا يحسم أمره . ولا أن يمضى فى أمر ثم سرعان ما يرجع عنه ويمضى فى غيره أمام ضغوط الحياة .

أو إيراد الشبهات عليه من غيره فلا يتريث فى أمره أولا . ولا يتريث لنكوثه ثانيا

وما أجمل ما قاله أبو الحسن فى هذا المقام لكميل بن زياد:

«يا كميل : إن هذه القلوب أوعية : فخيرها أوعاها للخير . والناس ثلاثة . فعالم ربانى .. ومتعلم على سبيل نجاة .. وهمج رعاع أتباع كل ناعق : يميلون مع كل صائح . لم يستضيئوا بنور العلم. ولم يلجأوا إلى ركن وثيق . ثم قال : آه .. إن ههنا علماً - وأشار بيده إلى صدره - لو أصبت له حملة !!!

بل قد أصبنا لقناً - سريع الفهم - : يستعمل آلة الدين للدنيا . ويستظهر بحجج الله على كتابه .. وبنعمه على معاصيه . أو حامل حق لا بصيرة له فى إحيائه .

يتقدح الشك فى قلبه بأوله عارض من شبهة .. لا يدرى أين الحق ؟ إن قال : أخطأ .. وإن أخطأ .. لم يدر .. مشغوف بما لا يدرى .. فهو فتنة لمن فتن به . «وإن من الخير كله من عرفه الله دينه .. وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف دينه » (١) .

من ثمرات هذا الاتجاه :

ويترتب على ذلك أنه :

١- لا يجوز لك أن تقول : فلان لا يهديه الله . لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] .

٢- وليس لك أن تقول لمن رأيته على معصيته : لن يغفر الله لفلان : ففى الحديث ما معناه : أن رجلاً من بنى إسرائيل قال لأخيه : لن يغفر الله لك . فجيء

---

(١) أعلام الموقعين ج / ٢ / ١٧٦ .

بهما يوم القيامة . فقال سبحانه للذى قال ذلك : أكنت بى عالماً . . على ما فى يدى قادراً ؟ !! اذهبوا به إلى النار .

وقال للآخر : «اذهبوا به إلى الجنة برحمتى» (١).

فى الطريق إلى الأخوة الجامعة

يقول اللّه تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥] .

هكذا تتم عملية الإبصار . . طبق قانون الإبصار : أشعة الضوء . . تنعكس على الشىء . . ثم ترتد إلى أعيننا فنبصر ذلك الشىء ! والشمس تجرى لمستقر لها . . ينبعث منها الضياء . . ثم يسقط على القمر . . فتكسوه نوراً . . ومن ثم نراه . . ولولا الشمس . . لبقى القمر جرما مظلماً !

وفى منطق والإسلام نجد نفس المعنى :

لقد كانت أمتنا ضاربة فى الظلام على غير هدى . . حتى جاءها الرسول ﷺ بالهدى . . فتمت عملية الإبصار : كان هناك :

العداء . . والإسراف . . والفوضى . . والتهور . . فكان الصدام . . فى بحر من هذا الظلام . . فلما طلع الفجر يشع ضياء . . فبدت معادن هذه العادات ذهباً خالصاً يشع نوراً : فكانت الشجاعة . . بدل التهور . والنجدة . . بدل العداوة . والكرم . . مكان الإسراف . والحرية . مكان الفوضى . ومن ثم استجمعت الأمة أسباب استقرارها واستمرارها فى ظل قيادة موثوق بها . . ودين منسجم مع الفطرة . . ورجال على مستواه أشد على الكفار . . رحماء بينهم . .

من مظاهر الرحمة :

والإخاء . . أعظم مظاهر الرحمة . . وهو الذى تتحقق به الوحدة التى نكون بها أشداء على الكفار .

---

(١) حد الإسلام للشيخ عبد المجيد الشاذلى / ١١ .

ولو أدرك البشر أخوتهم .. لما وجدنا فى التاريخ بقعاً سوداء تقف عندها نفوسنا حيارى . لو أدرك البشر أخوتهم .. لما رأينا المطامع تدفع الأمم القوية إلى استعباد الأمم الضعيفة . لو أدرك البشر أخوتهم لما استمعنا فى اجتماعاتنا كلمات جارحات يجازف بها كل فى حق أخيه .

ينفجر ينبوع النهر فى أعالى الجبال .. فيهرول مقهقهاً على الصخور . حتى إذا ما حشر وسط الشواجن الخضراء .. ملأ الوادى ألحاناً وأنغاماً .. يجرى فى الصحارى والقفار .. فتنقلب القفار والصحارى مروجاً خصيبه .. وجنات زاهرة . ثم يروى أهل القرية والمدينة بلا تفريق : يرضع الأشجار بتغلغله فى صدر الأرض الملتهب . ويغذى الثمار والنبات .. ناظماً لآلىء فى ثغور الورود وكلما وزغ من مياهه .. زادت مياهه اتساعاً وتدفقاً . فيتابع السير .. بعقيقة الفخم .. واسع العظمة .. واسع الجلال . حتى إذا ما جلب النفع إلى الكائنات .. وملأ الديار خيراً وجمالاً .. رأى البحر منبسطاً لاحتضانه .. فشهق الشهيق الأخير .. وانصب فى صدر البحر مهللاً مكبراً ..

كذلك عاطفة الأخوة :

لا تكون أخوة حقيقية .. إلا إذا خرجت من حيز الشعور إلى حيز العمل : تنفجر عذوبتها على ذرى الاجتماع .. وتجرى نهراً كريماً بين طبقات المجتمع .. فتلقى بين المتناظرين سلاماً .. وبين المتدينين تساهلاً .

وتنقش محامد الناس على النحاس .. أما العيوب : فتخطها على صفحة الماء . تساعد المحتاج ما استطاعت بلا تفريق بين المحمدى والعيسوى والموسوى : ترفع المسكين من بؤس الفاقة . وتنشر على الجاهل أشعة العلم . والعرفان . وتفتح أبواب الرجاء لعيون أظلمتها أحزان الليالى . فكم من دورة فى أعماق البحر لم تسر بها النواظر .. لأن يد الغواص لم تصل إليها ..

وكم من زهرة نورت فى القفر .. فتبدد عطرها جزافاً فى الهواء . إنما الإخاء يزيح بيده الشفيقة الشوك عن الزهرة المتروكة .. ويرفع لها جدراناً تقيها رياح

السموم. إن الإخاء : هو العين التى ينفذ نظرها إلى أعماق النفس فترى أوجاعها . وهو الهمة العاملة لخير المجتمع بثقة وسرور . لأنه القلب الرحيم الخالق .. مع قلب الإنسانية الواجف ولو كان لى ألف لسان لظلت أنادى بها : الإخاء ! حتى تجبر القلوب الكسيرة . وتجف الدموع فى العيون الباكية .. حتى يصير الذليل عزيزاً .. والفقير واجداً حامداً . إ . هـ

أما بعد :

فإن تغيير المنكر لا يتم بعملية انتحارية ..

ولن نفطم المدمنين إذا كسرنا دنان الخمر .. وإنما هى التربية التى تدخل الزمن فى حسابها وهى تعالج المريض .. وبخاصة فيما يتعلق بالخمر .. بالذات : ذلك بأن سائر المعاصى تفتر رغبة الإنسان فيها .. بطول ممارستها .. إلا الخمر : فإنها تنفرد دون المعاصى جميعاً : فإن الشرب كلما كان إقدام الشارب عليه أكثر .. كان نشاطه أكثر ورغبته فيه أتم . فإذا واظب الإنسان عليه صار غارقاً فى اللذات البدنية.. معرضاً عن تذكر الآخرة والمعاد . حتى يصير من الذين نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم من أجل ذلك نرى المنهج الإسلامى هو المنهج الكامل .. والذى كان من كماله أنه نقلهم من النقيض إلى النقيض .. رويداً رويداً .. لقد عبر شاعرهم عن فتونهم بالخمر فقال :

ونشربها .. فتتركنا ملوكاً وأسدا لا ينهنها اللقاء -

وقال : على مثلها فليبك من ضاع عمره - وليس له منها نصيب ولا سهم .. بل إن الوله بها كان فيما قيل تحدياً :

لو كان لى مسعد بالراح يسبعدنى	كمال انتظرت لشرب الراح إفطاراً
فالراح شىء شريف أنت شاربه	فاشرب ولو حملت الراح أوزاراً
يا من يلوم على صهباء صافية	خذ الجنان ودعنى أسكن النارا

ولقد استطاع الإسلام أن سيفطمهم عن هذه العادة المتأصلة بمنطق العقلاء .. وعلى لسان الشعراء :

أما العقلاء فعلى رأسهم العباس بن مرداس : قيل له قبل الإسلام : لم لا تشرب الخمر : وهى تزيد فى جراَتك؟ فقال : ما أنا بآخذ جهلى بيدى . فأدخله فى جوفى. ولا أرضى أن أصبح سيد قوم . وأمسى سفيههم .

وأما الشعراء : فقد كانوا بالأمس يهيمون مع الخمر فى كل واد . . فلما طلعت عليهم شمس الإسلام . . سخروا ملكتهم الشعربة للتنويه بلذة أخرى . . أدوم . . وخمر أخرى أقوم . . فقال ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم !

وقال :

وقالوا : شربت الإثم . . كلا

وإنما شربت التى فى تركها عندى الإثم!!

وقال الششترى :

طاب شرب المدام فى الخلوات اسقنى يا نديم بالآنيات

خمرة تركها علينا حرام ليس فيها إثم ولا شبهات

عتقت فى الدنان من قبل آدم أصلها طيب من الطيبات

افتِ لى أيها الفقيه وقل لى :هل يجوز شربها على عرفات ؟!!

أ- وقد يطيل النص فى الحديث عن الشيء المنهى عنه بما يظن للوهلة الأولى أن المعنى يتم بدونه . مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [النحل : ٥١].

يقول الدكتور محمد سعاد جلال [١] من ملامح المنهج القرآنى فى الدعوة أن الشيء إذا كان مستهجناً . . ذكره القرآن بصورة موسعة . . مكررة . . ليقف العقل

(١) بتصرف .

على ما فيه من استهجان ومن هنا : اثنين . . مع الاستغناء عن ذلك بقوله تعالى : ﴿إليهن﴾ . ذلك بأن لفظ يدل على ثبوت الإلهية . والتعدد .

فلو اقتصر على إلهين . . لم يعلم : هل المنقى : الإلـهية . . أو المنفى : التعدد فكان لابد من «اثنين» ليعلم أن المراد : نفى التعدد . لا نفى الإلهية . فثبت أن التعدد أمر مستـهجن لتأديته لفساد نظام العالم . فـثبت أن الإله واحد . وهو الذى يخاطبنا بمعجزة القـرآن : ولذلك عدل عن الغيبة . . للحضـور . . فهو سبحانه حـاضر فهو الذى يعـبـد . . لأنه الذى يرهب لا غـيره . . لأن كل مـوجـود بتـدبيره . . قـادر بإقداره . . والرهبة لا تصح إلا من كامل الوجود . . دون غيره . أ . هـ .

أ- إذا كـان الموضوع المعـروض غريبـاً . . قد يـصطدم بحس المدعو . . فـعلى الداعى :

١- أن يمهد له تمهيداً بفتح الشهية . مثل : إن مثل عيسى عن اللّه كمثل آدم .

٢- أن يكون هناك تسلسل . . فـلا يحكم أولاً . . ثم يأتى بـالدليل أخيـراً . . وإنما عليه أن يبدأ بالمقدمات ثم يأتى بالحكم أخيراً .

ب- وقد يركـز النص على المنهى عنه . . على نحو يـبرزه فى أسوأ حـالته . . لتتقزز النفس . . ثم قلع عن هذا المنهى عنه حتى فى أدنى دركاته . .

مقل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ [النساء : ٢] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء : ١٠] .

فأخذ أموال اليتامى ظلماً . . قبيح . . قبيح . . على أى نحو كان ذلك الأخذ : عن طريق الأكل . . أو غيره من الصور . . لكن السياق الكريم يركز على الأكل . . لما فى مشهـد الأكل من قبح يتقزز منه الذوق العـربى والإسلامى . . ومن أجل ذلك ذكر صورة الأكل صـدمة للحس . . حتى إذا ملأ ناظريه من ذلك المـشهد الكريه . . عقد العزم على عـدم التورط فى ظلم اليتيم . . وعدم احتـيازه أكلاً كان ذلك . . أو غيره !

أهمية الاتباع :

كتب عمر – رضى اللّه عنه – لأهل حمص. . أن يرسلوا إليه بأسماء فقرائهم. . فكتبوا اسم «سعيد بن عامر» بين الفقراء . . وكان والياً عليهم !! ذلك بأنه كانت تمر عليه شهور لا يوقد فى بيته ناراً فأرسل إليه عمر – رضى اللّه عنه – ألف دينار .

فلما رآها سعيد – رضى اللّه عنه – قال : إنا للّه وإنا إليه راجعون !

فقالت له امرأته : هل مات الخليفة ؟

فقال : لا .

فقالت : هل هزم المسلمون؟ .

فقال لها :

الأمر أعظم من ذلك :

لقد حلت الفتنة فى دارى . . دخلت علينا الدنيا . . لتفسد علينا الآخرة . . !!
فلما قال له عمر : لقد قبل الرسول ﷺ الهدية . . فقال عندئذ :

أتبعه . . وأقبل الهدية !!

من حيل المعاندين

يقول الجوينى عن المجادل :

{ ولا يكن قصده الظفر بالخصم . والسرور بالغلبة والقهر . فإنه من دأب الأنعام الفحولة . كالكباش والديكة }[١] .

ولكن بعض الناس يدخلون ساحة الحوار متعصبين .. مندمجين فى أفكارهم وآرائهم .. لا يبغون عنها حولاً .. لأنها بنات أفكارهم .. وبنت الإنسان مهما كانت درجة جمالها .. فهى فى عين والديها غزال !؟ .

ويفرض عليهم ذلك أن يحتالوا .. لفرض آرائهم .. بحيل ابتدعوها من عند أنفسهم .. ما كتبها الحق عليهم . يراد بها الانحراف عن كل طريق يؤدى إلى الحق فى موضوع النزاع .

من حيل المعاندين :

ذكر الجوينى فى الكافية بعض هذه الحيل . ومنها :

أ- أن يلجأ المحاور المعاند للغموض .. فليغز فى كلامه .. حتى لا يفهم .. مستهدفاً من وراء ذلك إحراج الخصم .. على مشهد من الجماهير .. ليقول له بين الحين والآخر :

أ- أنت لم تفهم كلامى .

ب- أو لم أقل هذا .

جـ- مريداً بذلك إيهام الحاضرين أنه الأذكى .. ثم إثبات عجز خصمه .. زوراً وبهتاناً .

د- أن يغرق الخصم بصور من البيان الخلاب .. متجاوزاً النقط التى تمسك بتلابيبه .. معنا فى التزوير بهذا البيان الذى يشكل بلغة الحرب - ساتراً من النيران .. يمكنه تحت مظلته أن يهرب من مواجهة الحق .

---

(١) نفس المرجع، والموضع السابق .

أما فى الإسلام :

فإن المناظرة تتم فى نقطة الضوء .. وعلى نحو يعين الطرف الآخر على الوصول إلى الحق لنكون فيه سواء .. ويفرض علينا الإسلام أن نحفظ أعصابنا . ونصون سمعتنا .. فلا ندخل فى حوار مع هؤلاء .. لكن لما عم البلاء .. كان لابد من التصدى لهم .. ومواجهتم بنفس السلاح .. سلاح الحيلة .. ولكنها الحيلة علي الطريقة الإسلامية والتى شعارها :

عرفت الشر .. لا للشر لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ثم هى الحيلة المنضبطة بأدب الإسلام.. الرامية إلى تحقيق الحق وتمحيق الباطل.. وذلك فى أضيق الحدود .. وبالقدر الذى يربك الخصم .. حين يجد نفسه أمام الحق الذى رده لما طرق عليه الباب .. وها هو ذا يدخل عليه من النافذة !

نماذج من حيل الصالحين :

من مشاهد الطبيعة : التمساح :

إنه كائن ضخم .. يمكن بذيله أن يحطم زورقاً بما فيه .. ثم إن جلد ظهره صار لا تنفذ فيه السهام ولم يقف الصائدون مكتوفى الأيدى أمام هذا الكائن الضخم .. ولأنهم محتاجون إليه .. فحاجتهم تفتق حيلتهم .. هذه الحيلة التى كانت على النحو الآتى :

لقد استخدموا ذكاءهم ومهارتهم التى أسفرت عن حيلة تتلخص فى حشد جهودهم لقلب التمساح على ظهره .. فلما انقلب .. بدت بطنه بجلدها الرقيق .. والذى نفذت فيه سهامهم .. وبلغوا بالحيلة ما يؤملون .

وقد أفاد علماؤنا من آيات اللّه تعالى فى الآفاق .. فكانت الحيلة أحياناً – سبيلهم لا إلى إفحام الخصم فقط .. وإنما إلى إقناعه بالحق الذى عليه يصالحون ويخاصمون :

ذكروا أن فتى مغروراً جاء إلى رجل صالح يسأله عن : اسم اللّه الأعظم . .

وقد أدرك الشيخ الحكيم أنه أمـام تلميـذ مشاكـس . . فى مدرسة مـردت على الخوض فى متـاهات تتعب نفسهـا حول قضايا لم ترشح لاسـتيعابهـا . . فضلاً عن مناقشـتها . . قـضايا أقل ما يقـال عنها : علم لا ينفع . . وجـهل لا يضر . . وهو قرين ذلك الذى جاء يسأل رسول اللّه ﷺ عن الساعة . . فقال له :

وما أعددت لها؟! إنها طاقات حبيـسة . . معطلة عن العمل . . مشغولة بالكلام وشغل الأفهام بما لا يقدم للأمة دقيقاً . .

ولقد يتيقن الرجل الصالح أن مناقشة هـذا الفتى . . غير مجدية . . بل قد يغلبه الفتى . . فى معـركة قد يبـهت فيهـا الأقوياء . . وينتصـر المهرجون بالصـياح . أو بالنباح ! ذلك بأنه لا يـحمل فى رأسه عـقلاً . . وإنما هى قطعة من الفـولاذ لا تنفذ فيها السهام . . ومن ثم قرر تفتيت هذا الحجر بالحيلة . . وليس بالعنف ! .

وبدأت الخطة على النحو التالى :

طلب منه الشيخ أن ينزل ليتطهر فى حوض إلى جـواره . . وبعد ذلك يجيبه إلى طلبه .

ولما انتهى الفتى من مـهمته . . أوعز إليهم الشيخ أن يردوه مـرة ثانية . . وثالثة فى الحوض . . فى درجة حرارة تحت الصفر !! ولما تأكد الفتى أنهم قاتلوه غرقاً . . اتجه إلى اللّه تعالى . . فأخرجه الرجال . . وأتوا به إلى الشيخ الذى قال له :

لقد عرفت اسم اللّه الأعظم . . ولما تساءل الفتى : كيف ؟ أجابه الشيخ :

لقد رأيت الموت . . فـصدق رجاؤك للّه . . ولجأك إليه . . فـأنقذك . . وهكذا يجيب اللّه تعـالى المضطر إذا دعاه . . فالإخلاص هو قـاعدة الانطلاق . . ولسنا فى حاجة إلى فلسفة أرضية لتحديد معان لا تسـتوعبها عقولنا . . ولكنها منبثة فى الكون من حولنا ومن فوقنا . . وتحت أقدامنا . .

وصـدق اللّه العظيم ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥] .

الحيلة فى القرآن :

لم يرد القرآن . ولا فى غيره من النصوص أن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه عن موسى والمؤمنين معه . . وإلا . . كيف يحكمون بإسلامه ويعاملونه على أنه مسلم مؤمن معهم . . وهو يكتم عنهم أمره ؟

وإنما كان يكتم أمره عن فرعون وملئه ولا يعنى هذا أنه كان يوالى فرعون . أو يلتزم بشريعته . بل شأنه فى ذلك شأن نعيم بن مسعود . . عندما أسلم إبان غزوة الخندق . فقال له رسول الله ﷺ عندما عرض عليه نعيم جهاده معه :

[إنما أنت رجل واحد . فخذل عنا]

وطلب منه أن يكتم إيمانه . . حتى ينجح فى مهمته .

ففعل نعيم ما فعل . مع أبى سفيان . . ومع بنى قريظة وغيرهم . وهم لا يعلمون أنه على دين محمد . لأنه كتم عنهم إسلامه . كفعل محمد بن مسلمة عندما قتل كعب بن الأشرف . . فاستأذن الرسول ﷺ . . فأذن له . . فجعل محمد بن مسلمة يشكو إلى كعب شأن محمد ﷺ ويتبرم منه . ومن صحبه المهاجرين . ليظن كعب أن به نفاقا فيأمنه . . وقد كان . وبهذا استطاع أن يقتله .

وكما كان المسلمون يستخفون بدينم فى مكة : فإنهم كانوا يكتمون عن قومهم . حتى يأمنوا أذاهم . ولكن كان الرسول ﷺ والذين معه يعلمون شأنهم].

من براهين القرآن :

يقول اللّه تعالى فى سورة الجاثية :

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية : ٣ - ٥] .

يقول علماؤنا : كل شىء فى هذا الوجود يدل على أن اللّه تعالى واحد :

وفى كل شىء له آية … تدل على أنه الواحد

لكن الحق سبحانه وتعالى تلطفا منه بعباده .. يتودد إليهم بالتركيز على هذه المخلوقات التي ذكرتها الآية الكريمة دون غيرها .. حتى يتاح للمدعويين أن يفكروا.. ثم يستبصروا .. ليصل بهم الاستبصار إلى الإعتبار :

١- فهذه المخلوقات أدلة على توحيد اللّه تعالى .

٢- ثم هى فى نفس الوقت نعم يمتن اللّه تعالى بها على عباده .. فلعلها تثير القلب .. ليذكر فضل الواهب سبحانه .. إذا ضل العقل فلم يستوعب جانبها البرهانى :

يقول الرازى :

[إعلم أن النعم على قسمين : نعم دينية . ونعم دنيوية. وهذه الأمور المذكورة نعم دنيوية فى الظاهر . فإذا تفكر العاقل فيها . واستدل بها على على معرفة الصانع الجليل تبارك اسمه .. صارت نعما دينية .

لكن الانتفاع بها من حيث كونها نعما دنيوية .. لا يكمل إلا عند سلامة الحواس . وصحة المزاج . فكذا الانتفاع بها من حيث إنها نعم دينية .. لا يكمل إلا عند سلامة العقول . وانفتاح بصر الباطن] .

أى : أن لفت القلب إلى هذا الجمال المنبث فى الكون .. كان سبيلا إلى غزو العقل فى النهاية بهذا الجمال الذى هو فى نفس الوقت أدلة من شأنها أن تقنعه.. فلعله أن يستجيب لداعى الإيمان . ويظل الحوار أبدا السبيل الأوحد لإدارة الخلاف.. ويظل خلق السماحة أسلوب التعايش السلمى بين المتحاورين الراغبين فى الوصول إلى نقطة الاتفاق .

وهكذا الحوار فى التصور الإسلامى .. ولكن .. قد يبدو المحاور عدوا مخيفا.. لا يحمل فى يده قلما .. ولكن : سلاحاً .. ولا يتحرك بين فكيه لسان.. وإنما هو السنان .. التى لا مجال معه للبرهان . فما هو الحل إذن؟ .. الحل: أن يستعمل المحاور الحيلة .. والحيلة .. وبالحيلة ننتصر سلمياً وعلى من بدا أقوى منا : ولتكن لنا فيما حولنا عبره :

إن التمساح كائن مخيف : فجلده لا ينفذ فيه الرصاص . كما وأن «ذيله» سلاح فتاك قد يحطم قارب الصائد .. ولكن الصياد الماهر .. مع رفاقه .. كما أشرنا يحاولن أن يقلبوه على ظهره .. فإذا انقلب على ظهره .. بدا جلد بطنه الرقيق والذى تنفذ فيه السهام .. وهكذا ينتصرون عليه .. فى معركة سلمية سلاحها الذكاء .. وإذن .. فنحن كدعاة مطالبون بالبحث عن نقطة الضعف فى كيان الطرف الآخر .. فإذا وضعنا عليها أيدينا .. بدأ الذكاء يخطط للهجوم السلمى .. الواصل بنا .. وبالمدعو إلي ما نريد!.

من أعمالهم سلط عليهم

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٥] .

تمهيد:

إذا كان حق الخصومة مكفولا .. فلابد من الدليل تدعم به وجهة نظرك . ذلك أن الجدال بالحسنى .. وبالحجة حسن .. وحق . لأن فيه إبطال التقليد ..

أما أن تكون الخصومة غشماً .. وكبراً . فقد خرجت عن الحظ . وسقطت من الاعتبار فى ساحة الحوار .. ولم يبق إلا إعلان بطلانها .. حتى لا يقع أحد فى شراكها .

وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة :

فالمجادلون ينكرون الشمس فى رائعة النهار : ينكرون الآيات .. العلامات الواضحات للعين المجردة .. ثم إنها آيات مكرورة تأخذ بحجزهم إلى الحق .. فى الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس .. فى أعماق البحار .. وقمم الجبال .. وآفاق الفضاء. إنها آيات واضحات : ليست فى حاجة إلى محاضرات فلسفية تقنعك بها .. وإنما هى متاحة لمن أراد أن يتخذ إلى الهداية سبيلا .. وإذن .. فإن الوصول إلى وحدانية الخالق سبحانه .. وإلى تقرير حقيقة البعث ليست أمرا صعبا . ولا متناقضاً مع فطرة الإنسان .. وها هو ذا القرآن الكريم يقود خطى الإنسان إليها .. من خلال

آياته الكريمة . . ليرى المخاطب ويسمع . . ويحس. . ولكنها العوائق الاجتماعية : من التقاليد والأعراف . . والموانع النفسية . . من العناد والكبر . . كل أولئك يقف حجر عثرة فى طريق القوم . .فكان لابد من إعلان ضلالهم والتشنيع عليهم . والتعجب من حجودهم !.

وذلك قوله تعالى:

{كبر مقتا عند اللَّه وعند الذين آمنوا كذلك يطبع اللَّه على كل قلب متكبر جبار}.

والمعنى كما يقرر الرازى : { والمقت هو أن يبلغ المرء فى القوم مبلغاً عظيماً. فيمقته اللَّه تعالى . ويبغضه . ويظهر خزيه وتعسه} .

{ليس حجراً على الرأى الآخر} .

كما أن اللَّه تعالى لم يجعل للإنسان فى جوفة قلبين . فإنه تعالى لم يجعله بحيث يخدم سيدين! وإنما هو سيد واحد. . رب العالمين سبحانه . . فمن تنكر لفطرته وجحد نوازع الخير فيها. . فهو جدير بغضب اللَّه تعالى . .{كبر مقتا} لماذا؟ .

١- لأن إنكار البعث إنكار لفكرة الجزاء أساساً . . لتصير الدنيا مسبعة يأكل القوى فيها الضعيف .

٢- فيه ظلم عظيم للنفس . . من حيث يأتيها الهدى يدق عليها الباب ولكنها تعرض . . فهى عدو . . ولكن لنفسها أولاً قبل أن تكون معادية للحق .

٣- التكليف بالحجة هنا تكليف بما يستطاع . . ومن أضل ممن اتبع هواه . . بينما دلائل الهدى توافيه من كل مكان . .

من أضل ممن يتبع آباء السوء . . مؤثراً شبهة فاسدة على أن يصيخ لصوت فطرته يهزه من الأعماق . ولكنه من غاشيات الهوى فى ليل بهيم ؟

وبينما قلب المؤمن واد مقدس مطهر من العفن. . فإن قلب المعاند . . واد مكدس . . مكدس بالخرافات والأباطيل .

{ كذلك يطبع اللَّه على كل قلب متكبر جبار }

ومعنى ذلك كما يقول الرازى :

«إنه تعالى يخلق دواعى الكبر والرياسة فى القلب . فتصير تلك الدواعى مانعة من الطاعة والانقياد لأمر اللّه تعالى » .

إن العيب ليس فى الرسالة ولكنه عيب القلب الذى استجمع عناصر فساده : وهى: الكبر والتجبر . ذلك (بأن كمال السعادة فى أمرين هما التعظيم لأمر اللّه والشفقة على خلق اللّه . . فالتكبر : كالمضاد للتعظيم لأمر اللّه . والجبروت : كالمضاد للشفقة على خلق اللّه).

إن اللّه تعالى لم يطبع على كل قلب . . ولكن الطبع خاص بمن استجمع أسبابه وهى :

الكبر . . والجبروت . . فليس هناك افتئات على الإنسان . . فأنت لا تواجه هنا بشراً وإنما أنت أمام جماد . .

جماد : كان فى استطاعته أن يكون كائناً شاعراً حساساً ولكنه اختار أوكس القسمين : اختار لنفسه أن يكون جماداً .

لقد اختاروا الأسهل . . ولم يحاولوا البحث عن الخير. . عن الدليل . . ألا إن إيقاظ نوازع الشر أسهل من إيقاظ نوازع الخير . ذلك بأن محاولة الإنسان أن يكون خيراً هى المعاناة الحقيقية وبخاصة فى زمان يدفعك دفعاً إلى مواجهة الشر بالشر.

وعندما تكون القسوة عقاباً لم يكن الطبع علي القلب إذن تدمير لقوى الإنسان المدركة . . وإنما هو النهاية التى اختارها لنفسه . . فكان له ما أراد . وذلك معنى ملحوظ فى آيات القرآن الكريم :فى مثل قوله تعالى :

أ- ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾[المائدة:١٣].

ب- ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ [التوبة: ٧٧] .

جـ- ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].

د- ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ [آل عمران : ١٧٨].

لقد خطوا قبورهم بأيديهم . لقد نقضوا العهود . ولم يحافظوا على العقود .
وسمحوا لجرثومة الفساد أن تفرخ فى كيانهم . . فلما غيروا ما بأنفسهم من صلاحية
الخير . . غير اللّه ما بهم ليكونوا حطباً للنار :

إن الإسلام وهو الأقوى . . يخاطب الناس ويحاورهم بلغة الأقوياء : فلا يحجر على العقل . . ولا يضغط على الإرادة . . ذلك بأنه يريد للمسلمين أن يكونوا رجالاً . . لا أصفاراً علي الشمال .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر :٥٦- ٥٧].

تمهيد :

إذا كان حق الجدال مكفولاً للإنسان . . تعبيراً عن رأيه . .وتأكيداً لشخصيته . . فإن من واجبه أن يسعى إلى معركة الرأى بسلاحها وهو : البرهان . . البرهان الذى يفرزه عقل واع بالقضية المطروحة . . قادر على مواجهتها . ولكن بعض الناس يتجاهلون هذه الحقيقة . . مدفوعين بالكبر الذى يسول لهم . ويملى لهم . . معتزين بعقولهم فى مواجهة الوحى الأعلى . .

مع أن العقل ما هو إلا كما قيل : دابة تركبها إلي بيت السلطان . . لكنك لا تدخل بها عليه ! إن له حدوداً ومعالم تنتهى عندها مهتمه . . وإلا غرق فى محيط صاحب الموج . . ألا وإن طفلا غريراً يرسم على الورقة طائرة فلن تحلق به فى جو السماء .

وهكذا الطفل الغرير . كالباحث المغرور كلاهما : لا يرى إلا ما يحب أن يراه . . وإلا ما يحقق هواه . . ففقد بذلك رؤية الواقع كما هو !! .

ومن فقد الرؤية الكاشفة . . فقد حرم الهداية إلى الحكم السليم . .

قاعدة الانطلاق :

إذا فقد الباحث رؤية الواقع كما هو لم يكن له رأى سليم .. لأن شرط سلامة الرأى أو الحكم أن تكون قادراً على تصور القضية بكل أبعادها وآمادها .

قال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى :

{ إياكم أن تبادروا إلى الإنكار على قول مجتهد وتخطئته .. إلا بعد إحاطتكم بأدلة الشريعة كلها . ومعرفتكم بجميع لغات العرب التي احتوت عليها الشريعة . ومعرفتكم بمعانيها ورقها .

فإذا أحطتم بها كما ذكرنا . ولم تجدوا ذلك الأمر الذى أنكرتموه فيها .. فحينئذ لكم الإنكار .. والخيار لكم .. وأنى لكم ذلك } ؟!.

تأملات فى الآيتين الكريمتين .

١- تنفى الآية الكريمة على الذين يخوضون فى آيات اللّٰه بغير سلطان بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وليس هذا فقط بل إنه يجمع إلي الجهل النفاق : لأنه كما قيل بحق :

{يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش .لأنه لم يقتنع .. ويجادل لأنه غير متيقن}. ولكن الواقع أنه يجادل لأنه متكبر .. { إنه الكبر وحده هو الذى يحيك فى الصدور وهو الذى يدعو صاحبه إلي الجال فيما لا جدال فيه } .

وليس هناك حجة.. بالغة حد السلطان .. والذى يعنى : القوة .. والهيمنة والاقتدار على الهجوم والدفاع. وإنما هناك الكبر - والكبر وحده كما يفيد أسلوب القصر بمعنى أنك لو فتشت فى قلوبهم . عن عنصر خير .. ما لقيت إلا الكبر ..

معنى تفرد الكبر :

ويعنى ذلك أنك أمام قلب عفن: فليس لديهم سلطان يأتيهم من جهة شرعية معتبره .. ولكن الذى يأتيهم من داخلهم هم .. وهو مفردات الكبر جميعاً :

١- الحقد والحسد وقد قالوا { لو كان خيراً ما سبقونا إليه }.

٢- اتباع الهوى.

٣- التقليد .

٤- العناد .

وقد سول لهم ذلك المزيج البغيض أن يقولوا للرسول ﷺ : لا نسلم لك بالريادة والسيادة . لأن ذلك يعنى إلغاء وجودنا .. ونحن نرفض أن نتبادل المواقع لتكون أنت الصدر .. ونحن العجز .. أنت بالذات .. فنحن نرفض التبعية أولا . ونرفضها ثانيا لأن المتبوع هو أنت يا محمد ؟!

والعاقبة للتقوى :

وفي مرحلة من مراحل الجدال قد يظن المعاند أنه على شيء .. هكذا يزيدن الكبر لأهله سوء ما يعملون . فى هذه اللحظة يحتاج الداعية إلي ما يربط علي قلبه. ويثبت قدمه .. فى خصم معركة يستخدم فيها الباطل من صور التهريج ما يشوش على أهل الحق . وهذا ما تكفلت به الآية الكريمة وهى تقول :

﴿إن فى صدورهم إلا كبر .. ما هم ببالغيه..﴾

فإذا عششت فى صدور المعاندين آمال كاذبة فى هزيمتك .. فذلك ما لا يكون وستظل أنت فى المقدمة دائما : الرائد الذى لا يكذب أهله .. وسيظلون يتدحرجون فى سفحك صاغرين . إن الأقدار العليا ليست مجموعة من العالمين تأتمر بأمرهم .. وإن للّٰه تعالى جنوداً تعمل بخفاء .. متمتعة بكامل الحرية والاستقلال . وما يعلم جنود ربك إلا هو .. وفى ساعة الصفر سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

واجب الداعية :

وواجب الداعية عندئذ أن يفهم أن للدعوة ربا يحميها .. وإذن .. فاستعذ به وحده تعالى غير معتمد على إمكاناتك البشرية ولن يجعل اللّٰه للكافرين على المؤمنين سبيلا. وذلك ما يشير إليه قوله تعالي : ﴿ فاستعذ باللّٰه إنه هو السميع البصير﴾ إنك لست أمام بشر يحمل على كتفيه رأساً يفكر.. وإنما أنت أمام شياطين الإنس .. فاستعذ باللّٰه تعالى منهم . فسيكفيكهم اللّٰه ..

من دواعى الاستعاذة :

إذا كان اللّه تعالى هو السميع .. لما يقولون .. البصير بما يفعلون . فذلك من موجبات الاستعاذة به . واللجأ إليه سبحانه .. هذا أول.

وثانياً :

أن هؤلاء المعاندين لا ينشدون الحق .. ولو كانوا ينشدونه فعلا لاتجهوا إليه عن طريقه .. وهذه هى ذى دلائل الهدى منبثة . حولهم .. ومن فوق رءوسهم تدعوهم إلى الإيمان .. ولكنهم لا يريدون . ويفصل « الرازى » القول هنا تفصيلاً من شأنه أن يذهب بكل بقية من الشك فى قلوبهم :

يقول : واعلم أنه تعالي لما وصف جدالهم فى آيات اللّه بأنه : بغير سلطان ولا حجة . ذكر لهذا مثالاً فقال :

{ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس } .

والقادر على الأكبر قادر على الأصغر لا محاله .

وتقرير هذا الكلام : أن الاستدلال بالشىء على غيره على ثلاثة أقسام :

أحدها : أن يقال : لما قدر على الأضعف .. وجب أن يقدر على الأقوى.. وهذا فاسد .

وثانيها : أن يقال : لما قدر على الشىء . قدر على مثله .. فهذا الاستدلال حق.. لما ثبت فى العقول أن حكم الشىء حكم مثله .

وثالثها : أن يقال : لما قدر على الأقوى الأكمل .. فبأن يقدر على الأقل كان أولى . وهذا الاستدلال فى غاية الصحة والقوة . ولا يرتاب فيه عاقل البتة .

ثم إن هؤلاء القوم . يسلمون أن خالق السموات والأرض هو اللّه سبحانه وتعالى . ويعلمون بالضرورة { أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس } ..

وكان من واجبهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والأرض يكون قادرا . على إعادة الإنسان الذى خلقه أولا . فهذا برهان جلى فى إفادة هذا المطلوب }.

ثم يوضح الرازى أن هذا البرهان من الوضوح بمكان . .ومع هذا فأكثر الناس لا يعرفونه .

وذلك قوله تعالى : ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ومنهم هؤلاء المعاندون الذين كانت العلة كامنة فى قلوبهم . . وليست فى الرسالة الواضحة الدلالة على أنها من عند اللَّه . . وأن البعث حق مثلما أنهم ينطلقون ولكنهم يعاندون : ومن كان هذا شأنه فهو يجادل فى اللَّه بغير سلطان بين . . لقد حركه الهوى فتحرك . . وأثاره الحق. . فشغب على الحق بغيا وعدوا . وهكذا يصبح الكبر ذلك الثقب الذى تتسرب منه عناصر الهداية. . ليصير القلب بعد ذلك قاعاً صفصفا . .وجحر ضب خرب. . مختوما عليه . فلا يسمح بدخول شعاع من الهدى ولا بخروج بوم نعق فيه طويلاً .

موضوعية القرآن :

وإنك لتدرك موضوعية الحوار فى الإسلام حين يحكم الحق تعالي : على أكثر الناس بأنهم لا يعلمون . . مستثنى سبحانه كوكبة المؤمنين . ليكون ذلك درساً من دروس الحوار فى الإسلام . . يلزم المحاور أن يكون موضوعيا فى أحكامه فلا يأخذ المجرم بجيرانه . . وإنما : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة﴾ ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ [النجم : ٣٩] . ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر : ١٨].

من إنصاف الخصم :

ولاحظ من إنصافه سبحانه وتعالى للمعاندين أنه لم يمثل لقدرته على البعث بالمساوى . . ولكنه ينبه بالدليل الأشهر والأظهر . إعانة للمدعو على الاقتناع. . حين يجىء الدليل فى أعلى رتبة من البيان . . وقتل الإنسان . . ما أكفره . . ما أكفره حين يواجه الإنصاف . . بالإجحاف . . ثم ينسحب . .ولا يقترب . . ينكمش ولا ينتعش . . ﴿وما ظلمهم اللَّه ولكن أنفسهم يظلمون﴾ .

إلينا .. أيها الحائرون

يقول تعالى فى سورة الجاثية ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ . أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ . وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢٢-٢٦].

تمهيد :

يقول شيخنا الغزالى :

[إن الإسلام فى امتداده يرفض الضغط على العقل . أو الضغط على الإرادة فأما رفضه الضغط على العقل :

فإنه يبنى الإيمان على الحرية الفكرية المطلقة . ولا يلجأ إلي الخوارق التى تقهر قوى العقل . لتثبت اليقين فى رأس الإنسان . وعندما طلب عبدة الأصنام معجزة خارقة على وجود اللَّه سبحانه وصدق الرساله. نزل قوله تعالى : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء : ٤].

وكما رفض الإسلام الضغط على الفكر ليؤمن . . رفض الضغط على الإرادة لتذعن . . فنبة الخير وحدها موضع الاعتبار].

والآيات التى نحن بصدد التعليق عليها شاهدة بصحبة هذا المعنى :

فهى تفتح للحوار أبوابا . . لعل الشارد أن يعود إلى الحق . بمحض إرادته . . وبكامل حريته . . فبعد أن نفى سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة . . استواء الكافر والمؤمن فى الآخرة جاء بهذه الآية الكريمة دليلاً شاهداً بصحة هذه الدعوى :

﴿ وخلق اللَّه السموات والأرض بالحق .. ﴾

ولأنه سبحانه خلقهما بالحق . فلابد أن يكون هناك بعث وحساب . . [لأنه

تعالى لما خلق الظالم. وسلطه على المظلوم الضعيف . فإذا لم ينتقم للمظلوم من الظالم . . كان ظالما] سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ولو كان ظالما لبطل أنه . . «خلق السموات والأرض بالحق » وإذن . . فلا يستوى فى المآل ظالم ومظلوم. ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١] إن العلة فى أنفسهم فهم : كارهون للحق . . الحق الذى جاء يذكرهم بعناصر الحق فى فطرهم . . الحق الذى به يعلو ذكرهم فى العالمين ويسمو . . لقد اتخذوا إلههم: هواهم . . فعبدوه . . ولاحظ قراءته [آلهته هواه] لتدرك مدى التمزق الذى وقعوا فيه بسوء اختيارهم وإلى أى مدى تشعبت أفكارهم وتناقضت أعمالهم وسط هذا الكم الهائل من الآلهة التى تتقاضاهم أن يلبوا رغائبهم وفى وقت واحد على ما فى ذلك من تناقض يستحيل معه إرضاء الجميع .

يقول صاحب الظلال :

«والتعبير القرآنى المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية : حين تترك الأصل الثابت . وتتبع الهوى المتقلب . وحين تنبع هواها . وتخضع له . وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها . ومشاعرها . وتحركاتها . وتقيمه إلها . قاهرا لها، مستوليا عليها . تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول » أ.هـ .

وإذن . . فشريعة العدل تقضى بمجازاة هذا الصنف بما يستحق وبما ينسجم مع طبعهم المظلم : فقد أضله اللَّه تعالى . . لأنه سبحانه كما قال الرازى : [خلق جواهر الأرواح البشرية مختلفة : فمنها مشرقة نورانية . علوية إلهيه . ومنها كدرة: ظلمانية. سفلية . عظيمة الميل إلى الشهوات الجسمانية . فهو تعالى يقابل كلا منهم بحسب ما يليق بجوهره وماهيته وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وأضله اللَّه على علم﴾ فى حق المردودين . . وبقوله . . اللَّه أعلم حيث يجعل رسالته «فى حق المقبولين »[1] وإذن فحين يختم اللَّه على سمعه . . ويجعل على بصره غشاوة فهو الجزاء الذى استنزله الكافر بظلمه .

---

(١) الرازى . تفسير سورة الجاثية .

ومن إفرازات عبادة الهوى . . ذلك التخبط فى تفسير هذه الحياة : فهم يظنون : أن الدهر هو الذى ينهيها. فالمسألة لا تتعدى : مرور الأيام . . وكر العشى . . ليجد الإنسان نفسه مودعا الحياة . . هكذا تلقائيا . . يقولون هذا . . بلا أثارة من علم . . وإلا . . فلو كان لديهم علم لاكتشفوا به خطأهم : فالموت لا يتخطف الناس بالترتيب : فالطفل يموت . . قبل الشيخ الطاعن . والمريض يبقى . . وطبيبه يموت . وإذن فهناك إرادة عليها تصرف أمور الكون والحياة بحكمة بالغة . . ولكنهم يختارون الظن . . السطحية . . حتى فى معالجة أخطر القضايا . . وذلك إفكهم . . وهذه الآية - كما قال العلماء :

{ من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة : قول باطل فاسد . وأن متابعة الظن والحسبان . منكر عند الله تعالى } .

ذلك الظان : أحمق . . متسرع : لا يكاد الاحتمال يبرق فى ذهنه . . إلا ويصدقه . . بل ويجزم به . . ثم يختاره بسبب أنه بقلبه ميال إليه . . ولكن من غير موجب لهذا الميل . . وكلما حاصرته الأدلة . . لجأ إلى التهريج . . وأسرع بالخروج عن موضوع النقاش . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**﴾ فلم يبق إلا مخاطبتهم باللغة التى يفهمونها - وآخر الدواء الكى - وهى : التهديد والوعيد . . { قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون}.

الحوار بين الإفهام . والإفحام

فى آية سورة النحل ﴿ **ادع إلي سبيل ربك بالحكمة ..**﴾ الآية فيها من الدروس أدلة على طريق الدعوة تهدى الحائرين . . ونعيش مع الفخر الرازى مع بعض هذه الدروس بتصرف يسير منا .

إن الدعوة إلي مذهب ما لابد فيها من أساس . . ولابد لها من هدف : أمام الأساس : فلا بد أن تكون مبنية على حجة وبينة وأما الهدف فهو إما أن يكون :

أ- تقرير المذهب الذى تدعو إليه وتأكيده فى قلوب المستمعين.

ب- أو أن يكون الهدف فقط مجرد إلزام الخصم وإفحامه .

وعن الحجة يقول الرازى : { إن الحجة . . إما أن تكون حجة حقيقية يقينية قطعية مبرأة عن احتمال النقص . وإما ألا تكون كذلك . بل تكون مفيدة للظن الظاهر والإقناع الكامل . فالحكمة : هى الحجة القطعية . المفيدة للعقائد الدينية. وهى أشرف الدرجات وأعلى المقامات . وهى التى قال اللّٰه تعالى فيها :

{ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً} .

والموعظة الحسنة هى : الإمارات الظنية . والدلائل الإقناعية . والجدل هو : الدلائل التى يكون المقصود من ذكرها : إلزام الخصوم وإفحامهم .ثم يفرق الرازى بين نوعين من الجدل :

الأول : الجدل المكون من أدلة مركبة من مقدمات مسلمة فى المشهور عند الجمهور. أو من مقدمات مسلمة عند من تخاطبه . وهذا هو الجدل . . هو الجدل الواقع على الوجه الأحسن . . لأنك تحاول إقناعه على أساس من مقدمات هو مسلم بها . . فكأنك لم تفرض عليه رأيك . . وإنما تحاكمه إلى مسلمات هو مقتنع بها ابتداء . . وإذن . . فالنتائج التى سنصل إليها . . هو شريك فى صنعها .

أما الجدل الثانى :

فهو الجدل المكون من أدلة مركبة من مقدمات باطلة فاسدة ثم يحاول صاحبه ترويج هذه الأدلة على المستمعين . وتزيينها لهم . . ثم الشغب على المحقين بالحيل الباطلة . . والطرق الفاسدة .

وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل. وإنما اللائق بها هو القسم الأول . وينبغى علي ما تقدم:أن أهل العلم ثلاث طوائف: الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية،والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالدلائل القطعية اليقينية وهى الحكمة.

والقسم الثانى: الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة . . لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية . . والمكالمة اللائقة بهؤلاء هى : المجادلة التى تفيد الإفحام والإلزام }.

أما القسم الثالث فهم :

{ الواسطة الذين لم يبلغوا فى الكمـال حد الحكماء المحقـقين . . ولم يبلغوا فى النقـصان والرذالة إلى حـد المشـاغبين المخـاصـمين . والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالموعظة الحسنة }.

فإذا قال اللَّه عزّ وجلّ : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ..** ﴾ الآية . . فمعنى ذلك : { ادع الأقوياء الكاملين إلى الدين الحق . . بالحكمة . وهى البراهين القطعية اليقينية . وادع عوام الخلق : بالموعظة الحسنة . وهى الدلائل اليقينية الإقناعية الظنية. ثم تكلم مع المشاغبين : بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل}.

ثم يقول الرازى :

«ومن لطائف هذه الآية { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة} أنه تعالى قسم الدعوة على هذين الـقسمين : لأن الدعوة إن كانت بالدلائل القطعـية . . فهى الحكمة . . وإن كانت بالدلائل الظنية . . فهى الموعظة الحسنة . . أما الجدل : فليس من باب الدعـوة . . بل المقـصـود منه غـرض آخـر مـغـاير للدعـوة وهو : الإلزام والإفـحام. فلهـذا السبب لم يقل : ادع إلى سـبيـل ربك بالحكمة والموعظة الحـسنة والجدل الأحـسن . . بل قطع الجدل عن بـاب الدعوة . تنبـيها على أنه لا يـحصل الدعوة وإنما الغرض منه شىء آخر } .

ثم يقول تعالى بعد ذلك : ﴿**إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ والمعنى: أنك تكلف بالدعوة إلى اللَّه تعالى بهذه الرق الثلاثة فأما حصول الهداية . . فما يتعلق بك . فهو تعالى أعلم بالضالين وأعلم بالمهتدين .

ثم يعلل الرازى لهذا التقسيم تعليلاً نفسياً فيقول : {إن جواهر النفوس البشرية. . مختلفة بالماهية : فـبعضها نفوس مشرقة صافية . قليلة التعلق بالجـسمانيات . كثيرة الانجذاب إلى عالم الروحانيات . وبعضها مظلمة كدرة . قوية التعلق بالجسمانيات . عديمة الالتفات إلي الروحانيات، ولما كـانت هذه الاستعدادات من لوازم جواهرها . . لا جرم يمتنع انقلابها وزوالها .

ويترتب على ذلك تحديد مسئولية الداعية، وذلك ما يشير إليه الرازى بقوله : [فاشتغل أنت بالدعوة . . ولا تطمع فى حصول الهداية للكل فإنه تعالى هو العليم بضلال الضال . . وبهداية المهتدى] .

وهو الدرس الذى يتجه إلى الدعاة اليوم . . حتى لا ينفعلوا ذلك بأن مسئوليتهم تنتهى بقول الحق . . والنتيجة بعد ذلك على اللّه تعالى .

أمتنا

بين النصيحة .. والانتصاح

كل بنى آدم خطاء .. ولكن .. ليس كل إنسان يعرف خطأه .. وإذن .. فلابد من النصيحة .

من آداب التناصح :

قد يفرط الناصح .. فيشهر .. ويتشدد .. وقد يفرط المنصوح .. فينافق .. الأمر الذى حدا بالمدبين أن يضعوا من الضوابط ما يصل بالنصيحة إلى قلب المنصوح.

ومن هذه الضوابط :

١- لا تسرع إلى الصديق كل ما تسمعه .. بل تثبت .. فالجماهير هى أسرع إلى تصديق الشر .

٢- وحتى إذا سمعت الشر من ألف رجل .. فاكتف بشاهد واحد .. هو الذى رأى بعينيه .

٣- ولا تصدقه حتى تتأكد من شهادته .. وأنه برىء من الغرض .

٤- فإن احتمل الخبر وجهين .. فاحمله على أحسنهما .. وغلب احتمال الخير ولو كان واحداً فى المائه .

٥- قدر طباع الناس مدركاً ما يلى :

أ- من الذى ما ساء قط .. ومن لها الحسنى فقط ؟!

ب- من ذا الذى ترضى سجاياه كلها .

٦- لا تتحكم فى المسائل الخلافية .. ولا تحاكم المخطىء إلى وجهة نظرك فلعله مجتهد أخطأ .. بل إنه إذا واجهك بالدليل فهو معك وليس ضدك من حيث كنتما معا تبحثان عن الحق .. وهو مشترك معك فى هذا الحق .. وإلا فمن حقه أن يحكمك إلى مقياسه .

٧- إذا تأكدت من الذنب .. فانصح ولا تفضح .. ودعك من الغرور .. واحمد اللّه الذى عافاك مما ابتلى به غيرك «وبحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم» رواه مسلم ويكفيك أن يكون موقفك قرآنياً : ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الشعراء : ٢١٦] .

٨- وقبل هذا كله : حاسب نفسك قبل أن تحاسب غيرك . وقد قال سلفنا الصالح : المؤمن أشد حساباً لنفسه . من سلطان غاشم . ومن شريك شحيح .

نماذج وصور :

هناك فى دنيانا من يعيش فى قاعة من المرايا : إنه ينظر فلا يرى إلا نفسه .. ومن كان كذلك فهو واصل إلى حتفه ! وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ . أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ** ﴾ [العلق : ٦-٧] .

إنه الناظر .. وهو المنظور فى نفس الوقت .. ومن ثم فهو فى نظره فلك .. يجب أن يدور الناس فيه .. ومحور يجب أن يدورا عليه .. وينحط به الغرور إلى القاع .. بعد ما صار تلك الدابة الجموح بلا لجام ولا خطام !

إنه ينظر فى المرآه لا ليرى الخطوط الجديدة التى أضافتها السنون إلى وجهه .. ولكن ليعود بثقة أكبر بنفسه .. ليجد نفسه فى النهاية وحيداً فريداً .. بعدما أخرج من حياته الآخرين .

مرآة المسلم :

لكن المسلم له وضع آخر : إنه ينظر فى مرآة واحدة هى أخوه المسلم : فالتعرف على النفس لا يزال حتى اليوم كما كان قبل اختراع المرآة يحتاج إلى الآخر ليكون هذا الآخر : المرآة التى تنعكس عليها صورة نفسه ..

إن كل إنسان يحتاج إلى مرآة من نوع ما .. لتجسد له المجرد من شخصيته وتساعده بكيفية ما على اكتشاف كُنْهِ نفسه ومحاسبتها ونقدها وتصحيح مسيرها ..

وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف «المؤمن مرآة المؤمن» [١] .

إن قلب المؤمن مرآة : صافية . . مستقيمه . . غير محدود به : ولأنها صافية فإنها تعكس ما يرتسم فوقها بأمانة . . ودقة وصدق . . فلا غش فيها ولا خداع .

ولأنها مسطحة مستقيمة . . فإن الصورة تظهر فيها كما هى . . بكل ملامحها . . غير متكسرة . . ولا مبعثرة . . ليتكون فى النهاية ذلك الناصح الأمين . . الذى يذكرك بما فيك . . يذكرك . . ولا يشهر بك ! .

وإذن فقد كان من جوامع كلمه أن يشبه المؤمن بالمرآة . . ليكون فى الدعوة والنقد على مستوى المرآة .

يقول أحد الباحثين :

[وأنا أقبل نصيحة المرآة، ولا أتهمها بالكذب، وبمحاولة الإساءة إلى، وكذلك المنصوح - متى اعتقد بصدق الناصح عليه ألا يحاول التهرب من الاعتراف بالغلط، والاعتذار عنه بأعذار كاذبة .

والمرآة - كذلك - لا تكتفى بإظهار العيوب فقط، بل تبرز المحاسن أيضاً : فالوجه الجميل فيها يظل جميلاً وإن عراه ما يحتاج إلى تنظيف، والثوب الأنيق يبدو أنيقاً وإن احتاج إلى إزالة بعض البقع التى فيه . وكذلك الناصح عليه أن يلطف نصيحته بذكر ما يناسب من محاسن المنصوح له . والمرآة لا تفش سراً، ولا تحدث جاراتها بعيوب مستنصحيها، فإن غادرها الناظر محت كل شىء وكذلك الناصح، يكتم أسرار أخيه المنصوح، ويدارى أخطاءه وعيوبه. وقد أخذ بعض الشعراء لمحة من الحديث الشريف فقال نظماً :

صديقى مرآة أميط بها الأذى	وعضب حسام إن منعت حقوقى
وإن ضاق أمرى أو ألمت ملمة	لجأت إليه دون كل شقيق

إنك أيها المسلم لست نهراً : جماله فى سطحه . . ولكنك بحر : جماله فيما

(١) رواه أبو داود، والطبرانى . والبزار عن أبى هريرة - رضى اللّه عنه - .

تحفل به أعماقه من لؤلؤ ومرجان ولحم طرى .. ومحمود صفاتك فى حاجة دائماً إلى تهذيب .. وإلى متابعة .. فراراً من الهوى الجانح إلى التزيين .. والبهرجة التى تخفى الحقيقة .. لكنها لن تمحوها .

وواجبك الأول :

أن تكون مرآة نفسك : أن تنظر إلى عيوبك .. لتصلحها .. ثم تنظر إلى مزايا غيرك .. لتقلدها ..

ذم نفسك .. حتى يقل عليك الساخطون .. بل اخطمها كما تخطم البعير .. ثم كن لها من بعد .. قائداً وسائساً .

واجب العقل :

وواجب العاقل أن يتخذ له مرآتين :

ينظر فى إحداهما : إلى مساوئ نفسه .. فيتصاغر بها ثم يحاول التخلص منها. ثم ينظر فى الأخرى إلى محاسن غيره : فيحتذيه فيها . ويأخذ منها ما استطاع .

وقد كان لأسلافنا هذا المنهج .. والذى أسلمهم إلى الفلاح .. لقد قللوا من ساعات الفرح .. لأن القلوب تكون فيها قاسية .. ثم آثروا الحزن وهضم النفس .. لما رأوا ذلك سبيلهم إلى الفلاح .

تناصح العلماء .. والأمراء :

على جناحين من الثقة والحب .. رفعت الإرادة الشعبية عمر بن عبد العزيز - رضى اللّه عنه -.. ثم أجلسته على كرسى الرمارة ..

وقد أثبت أنه جدير بهذه الثقة .. وهذا الحب .. وذلك عندما اختار أحد الصالحين مستشاراً مؤتمناً .. وطلب منه أن يعينه على تغيير «هيئة المكتب» .. ليتم تشكيله من أعوان صالحين .. مصلحين ..

وإذا حرص الناس على أن يكون لهم من حولهم «عيون» يرضون غرورهم بما ينقلون إليهم من أخبار وأسرار ..فإن عمر - رضى اللّه عنه- يستشعر مسئولية

المنصب.. الذى إن لم يزد فى حسناته .. فعلى الأقل لا ينقصها !

حق النصيحة :

ومن حق المسلم عليك :

إذا لم تنفعه .. فلا تضره .

وإذا لم تمدحه .. فلا تذمه .

وإذا لم تسره .. فلا تخمه .

ولكن الشيخ المستشار لم يقف عند هذا الحد بل قـرر أن يبذل نصحه للخليفة بما يمكنه من إدارة دفة الدولة على تقوى من اللّه ورضوان .. فتجاوز به الناس جميعاً.. ليكون هو وحده المسئول .. فقال له :

أنت لا تريد أهل الدنيا .. كما وأن أهل الآخرة .. لا يريدونك !! وإذا يمنعك إيمانك من الاستعانة بالأولين ..

ثم يمنع الورع أهل الآخرة أن يخالطوك ..

إذا كان الأمر كذلـك .. فتوكل على اللّه واعتمد على نفـسك .. فأنت طبيب نفسك ..

وما دمت طبيباً ..فأول بوادر النجاح فى وظيفة الطبيب هى: تشخيص الحالة..

وحالتك هى :

أنك على مدى يومك على حالين :

إما أن تكون مذنباً .

وإما أن تكون متنعماً .

وإذن فعملك .. بل غذاؤك اليومى هو :

الاستغفار من الذنب .

والشكر على النعمة !

وهكذا يضع المستشار الأمين يد الخليفة على الكنز الغالى .. حين يضع فى يده مفتاح الرخاء .. رخاء الأمة وأمنها معاً :

من آثار الاستغفار :

فعن طريق الاستغفار تدخل الأمة عصر الرخاء .. الذى يمكنها من أقدارها .. ولا يمكن غاصباً من شل إرادتها والتحكم فى مصيرها :

يقول تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود : ٣] .

الزوجة الوفية :

وإذ يشكل العلماء الصالحون جبهة خارجية تمنع الحاكم من الميل مع الهوى .. فإن من تمام النعمة أن تكون الأسرة الصغيرة داخل البيت عيوناً مفتحة تعين رب الأسرة الكبيرة على إدارة شئون الدولة ..

وفى مقدمتهم الزوجة التى وإن لم تنصح نصحاً مباشراً لكنها مع زوجها على الخط .. مهتمة بأمره سائلة عن حاله .. واقفة بذلك إلى جانبه .. متوجعة مسلية له .. إن لم تستطع إنقاذه ..

[قالت السيدة فاطمة زوج عمر بن عبد العزيز - رضى اللَّه عنه -: دخلت يوماً عليه وهو جالس فى مصلاه واضعاً خده على يده ودموعه تسيل على خديه :

فقلت : ما لك ؟

فقال : ويحك يا فاطمة !

قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت .

فتفكرت فى :

الفقير الجائع . والمريض الضائع . والعارى المجهود . واليتيم المكسور .

والأرملة الوحيدة . والمظلوم المقهور. والغريب والأسير . والشيخ الكبير . وذى العيال الكثير . والمال القليل . وأشباههم فى أقطار الأرض . وأطراف البلاد .

فعلمت أن ربى - عزَّ وجلَّ - سيسألنى عنهم يوم القيامة .

وأن خصمى دونهم محمد ﷺ .. فخشيت ألا تثبت لى حجة عند خصومته فرحمت نفسى .. فبكيت !!

حتى العصاة .. ينصحون :

وقد يكون الرجل عاصياً عتيداً فى معصيته .. ولكن بذرة الخير كامنة هناك فى أعماقه .. وكراهيته للانحراف مركوزة فى فطرته .. وإذا كان الشيطان قد نزغه يوماً .. فإن لا يحب لغيره أن يتورط فى مثل ما تورط فيه :

حكى عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل قال : كان أبى دائماً يقول : غفر اللَّه لأبى الهيثم .. رحم اللَّه أبا الهيثم !! عفا اللَّه عن أبى الهيثم ..

فلما سألت أبى عن هذا قال :

بينما أنتظر الضرب بالسياط .. إذا برجل يجذبنى من ثوبى ويقول :

أما تعرفنى ؟؟

أنا أبو الهيثم !!

لص .. محترف .. عريق فى الإجرام ..

وفى سجلات الخليفة أننى ضربت ثمانية عشر ألف سوط .. وقد تحملتها فى سبيل الدنيا !!

فتحمل أنت .. يا إمام .. فى سبيل الدين !!

وهكذا .. ومن بركة الإمام أن يسوق إليه فى محنته عابرَ سبيل ليعينه على أمر اللَّه ..

ويقبل الإمام نصيحة الرجل .. لأنها الحق .. ماضياً على سنة نبيه الذى يقبل الحق ولو كان على لسان الشيطان :

فلقد قال لأبى هريرة عن الشيطان الذى غرر به : ﴿ **صدقك وهو كذوب** ﴾ !!

ويقول عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ٥٢] .

ويقول سبحانه :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح : ١٠: ١٣] .

وعن طريق الشكر .. تزداد النعم .. ويعم الرخاء :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وهكذا يكون اختيار المسئول قطعة من عقله ..

هذا الاختيار التى تكون منه الأمة فى جنة .. أو فى نار .

إن بعض المسئولين يبلـغ مرتبة أعلى .. فإذا هو تياه بهـا على الناس .. مؤكداً بهذا الغرور أن محله دون هذه المرتبة التى وصل إليها اعتسافاً أو تملقاً أو تحايلاً ..

وكان أقل الناس عقلاً حين تكبر على أمته .. فاستبد برأيه فى قيادتها ..

ولكن عمـر - رضى اللّه عنه - .. كـان أميناً .. متـواضعـاً .. فدل بأمـانته وتواضعه أن محله فوق مرتبته .. بما أخلص لدينه وأمته ..

وتبقى مسئولية المسلم عن إصلاح نفسه قائمة .. وعليه : أن ينظر إلى نفسه فى مرآة : فإن كان حسناً .. استقبح أن يضيف إليه فعلاً قبيحاً .. وإن كان قبيحاً .

استقبح أن يجمع بين قبحين !

أما بعد :

فمع واحد من الباحثين المحدثين .. يجلى من الحقائق ما غاب عنا .. والحكمة ضالة المؤمن .. أنى وجدها فهو أحق بها .

أمام المرآة :

{ فى مثل هذا الوقت من كل عام أقف أمام المرآة بعين متفحصة أحاول أن أتبين خطوطاً جديدة شقت طريقها إلى وجهى أو بدت معالمها فى انحناءات جسدى أو حفرت بصماتها فى أعماق شخصيتى .

فمن خلال المرآة يرى الواحد منا نفسه، فيكتشف كم هو معجب بنفسه وكم هو كاره لها، كم هو اثق بنفسه وكم هو متنكر لها، هنا نكتشف أنه لا يرفع من قدر نفسك إلا نفسك، ولا يهوى بقدر نفسك إلا نفسك، وأنه لا صديق لنفسك خير من نفسك . . ولا عدو لنفسك أكثر من نفسك .

اثنان فقط من بين مخلوقات اللّه يستطيعان أن يتعرفا على نفسيهما من خلال المرآة، هما الإنسان والسعدان - الشمبانزى - ويقول علماء النفس : إن الطفل يدخل مرحلة المرآة فى الشهر الثامن عشر، أى : السن التى يكتشف فيها أنه كائن منفصل عن أمه. ويبقى هذا الإنسان حتى فى عالميته أسيراً لمرايا قوميته واثنيته ولون بشرته وجنسه. ورغم أن المرآة اخترعت فى القرن الثالث عشر، فإن التعرف على النفس لا يزال حتى اليوم، كما كان قبل اختراع المرآة يحتاج إلى الآخر ليكون هذا الآخر هو المرآة التى ينعكس عليها صورة نفسه .

فالرجل كما تقول الأديبة فرجينيا وولف : يحتاج إلى المرآة لتكون المرآة التى تعكس له أفضل - وأسوأ - ما فى رجولته .

والرجل الأبيض، كما يقول عالم الاجتماع جيمس بولديون، يحتاج إلى الرجل الأسود ليكون المرآة التى تعكس له تلك العناصر من شخصيته الأمارة بالسوء، بما تتسم به من كراهية وغلظة واستعلاء .

إن كل إنسان يحتاج إلى مرآة من نوع ما لتجسد له المجرد من شخصيته ولتساعده بكيفية ما، على اكتشاف كنه نفسه ومحاسبتها ونقدها وتصحيح مسارها .

غير أن بعض المرايا تؤدى وظيفتها بشكل مختلف، خاصة عندما يكون المتفحص فيها مجتمعاً وليس فرداً .

وعلى سبيل المثال، عندما ننظر نحن العرب إلى مرآة تاريخنا، فإنها تعكس لنا صوراً من العظمة تدعو للفخر والاعتزاز، ولكن بدلاً من أن تشكل لنا هذه الصور حافزاً للنهوض من كبوتنا التى طال أمدها، فإنها تستغل لزرع بذور الكراهية بالآخر، وللتغنى بالماضى من دون توظيفه فى عملية النهوض بالحاضر وصناعة المستقبل .

وعلى سبيل المثال أيضاً، فإن بعض المرايا لا تعكس لنا إلا ما نريد، فتوحى لنا بأننا على حق ولو كنا فى ضلال. وتصورنا فى أعلى عليين ولو كنا فى أسفل سافلين، وبعضها الآخر لا تعكس لنا إلا ما يريده الآخرون. فتحاول أن تقنعنا بأننا إرهابيون متخلفون، وأننا نشكل خطراً على الحضارة وعلى السلام العالمى، ففى كل مرة ننظر فى شاشات التلفاز، أو فى جريدة أو مجلة، أو فى صفحة من آلاف صفحات الانترنت نجد مرايا تعكس لنا صوراً مقززة للنفس تقول لنا هذا ما أنتم عليه، بعضنا يقاوم التزوير بالتصحيح، وبعضنا الآخر يدفعه التشويه المتعمد إلى أقصى حدود التطرف . . ومنا من يقع فى المصيدة ويحاول أن يخرج من جلده .

ويستطيع الإنسان أن يقنع نفسه بأنه قادر على أن يكون حيث يختار أن يكون، ويستطيع أن يمارس فن تخيل الأشياء التى استبعدته أصلاً من خيالها، وأن يكون جزءاً من أشياء لم تشمله أصلاً فى رؤياها .

ثم هناك المرايا المشوهة التى تعكس صوراً للإنسان بأشكال وبمقاييس مضخمة أو مقزمة، تؤدى دور هذه المرايا اليوم برامج التلفزة وأفلام السينما التى تعرض لنا صوراً مشوهة عن أنفسنا وعن شعوب وأجناس، وعن جماعات وثنية ودينية بأشكال مبالغ فى تضخيمها أو مبالغ فى تقزيمها. وتحاول أو تقنعنا بأن تلك هى الصورة الحقيقية، على ما فيها من سخرية واستهزاء أو من كراهية واستعداء .

أمام المرآة يكتشف الإنسان فرديته وفرادته، فمن بين المليارات من البشر الذين سبقونا إلى هذه الدنيا، أو من الذين يزاملوننا العيش فيها، أو من الذين سيأتون من بعدنا، لا يوجد أنت إلا أنت، ولا يوجد أنا إلا أنا، تلك آية من آيات اللّه، غير أن الشعور بهذه الفرادة لم يتبلور إلا أخيراً . ذلك أنه حتى القرن الثالث عشر - ربما مع اختراع المرآة - لم يكن استعمال الاسم العائلى معروفاً . كان الإنسان يعرف باسمه

وباسم أبيه . ولقد منع يهود أوروبا الشرقية من استخدام الاسم العائلى حتى القرن الثامن عشر، واستمد المنع سارياً عليهم فى أمريكا نفسها حتى القرن التاسع عشر . ولم يكن يسمح للأسود الأمريكى باستخدام اسم عائلى إلا كمنحة من السيد مالكه . وإذا كان ربع المساكن اليوم يعيش فيها شخص واحد، فإن المسكن المنفرد لم يكن معروفاً حتى مائة سنة خلت . كانت العائلة عائلات ، كانت تتقاسم غرف البيت الواحد كما هو الحال حتى اليوم فى معظم مجتمعاتنا الشرقية الفقيرة . أمام المرآة يكتشف الإنسان أنه أصبح أو يكاد ، المعنى والأغنية (١) ! .

---

(١) الأهرام - محمد السمان .

الفصل الثانى

من سلبيات الحوار

من سلبيات الحوار

الغرور

كان بعض الصالحين يقول :

أخرج من بيتى :

فإن وجدت أعلم منى .. فهذا يوم فائدة .

وإن وجدت مساوياً .. فهذا يوم مذاكرة .

فإذا وجدت من هو أقل منى .. فهذا يوم الثواب .

ونضيف نحن : فإذا لم يجد من هؤلاء أحداً .. فقد استوى يومه وغده .. فهو إذن .. مغبون !

إنه التواضع الذى افترض صاحبه أن هناك من هو مساوٍ له فى العلم .. بل من هو أعلم منه ..

وإما من كان أقل منه .. فهو معه أيضاً على غاية ما يكون التواضع .. لأنه لا يحس معه بتميز .. وإنما يعلمه على رجاء الثواب .. ومن ثم فله فضل عليه .

إنها إذن :

الرغبة المشتعلة فى العلم .. والمشمولة بسليفة التواضع .. والتى تجعل من مثل هذا الطراز من العلماء ثروة يتقاضانا الوفاء لها أن نحتفظ بها .. وأن نحافظ عليها.. احتراماً لعلماء :

قدموا لنا تجارب .. لم نمارسها .

ونتائج .. لم نعان فى تحصيلها .

ومن ثمرات هذا التواضع أن يحرص الأستاذ على الإفادة حتى من تلميذه .. لأن العلم يضيع بين اثنين :

الحياء .. والكبر ..

ومن صور هذه الإفادة ما روى :

من أن الأستاذ قال لتلميذه يوماً :

إنى سائلك سؤالاً . . فإن أجبت عنه . . فأنا التلميذ . . وأنت الأستاذ !!

من أحق الناس بالرحمة ؟

فكتب إليه التلميذ :

أولى الناس بالرحمة ثلاثة :

الإنسان البر : يكون فى السلطان الجائر : فهو حزين طول دهره . . لما يرى . . وما يسمع .

والإنسان العاقل: يقع فى تدبير الجاهل وتحت رحمته : فهو متعب موهوم دائماً.

والرجل الكريم : يحتاج إلى لئيم . . ولابد من حاجة .

أما عن سؤالك : متى تضيع أمور الناس ؟

فاعلم أن أمور الناس تضيع . . إذا حدث ثلاثة أشياء :

أ- إذا كان الرأى عند من لا يقبل منه .

ب- والسلاح عند من لا يستعمله .

جـ- والمال عند من لا ينفقه !!

جـ٢ وهكذا يحاور الأستاذ تلميذه . . حواراً أسعد الاثنين معاً :

أسعد التلميذ الذى كان عند حسن ظن أستاذه به .

ثم أسعد الأستاذ الذى لا يفرض رأيه على تلميذه . . وإنما يفسح من صدره ليستقبل ما عنده . . فإذا بضاعته ترد إليه . . وإذا به قرير العين بمريد . . لا يذوب فى شخصية أستاذه . . وإنما هو الرجل . . المستقل فى تفكيره وتدبيره . . والذى إذ كان أستاذه اليوم . . فسوف يرحل عن دنيا الناس سعيداً بما خلف من رجال يحملون من بعده راية الكفاح .

وأين من هذا النموذج العالى . . هؤلاء المغرورون الذين يعتقدون أنهم العلماء . . وبلا منازع؟ . . حتى إذا دخلوا ساحات الحوار بهذه النزعة المستكبرة كانت النهاية وبالاً عليهم : قال «مقاتل» يوماً لتلاميذه :

سلونى عما تحت العرش . . إلى ما تحت الثرى !! وكان فى تلاميذه من يملك من الشجاعة الأدبية ما تحدى به تلك النزعة البغيضة . . قال له واحد من تلاميذه : ولكنا لا نسألك عما فى السماء . . ولكن نسألك فقط عما فى الأرض وذكره اللّه تعالى فى كتابه : أخبرنا عن كلب أهل الكهف : ما لونه ؟!! فسكت الأستاذ . . بل بهت !!

وقد كان «لمقاتل» هذا زميل على ذات الطريق . . هو قتادة الذى قال فى زهوٍ فخوراً :

ما سمعت شيئاً قط . . إلا حفظته ! ولا حفظت شيئاً قط . . ونسيته !

ومن تدبير اللّه تعالى أن يجيئه العقاب المعجل . . وقبل أن يغادر المجلس . . وذلك . . عندما قال لغلامه : هات نعلى . . يا غلام . . فقال له غلامه : هى فى رجليك يا سيدى !؟ وهكذا يفضحه اللّه تعالى . . وقبل أن يقوم !! إنها مدرسة الغرور التى تبتلى بها مجالس الحوار . . فلا تفرز إلى البوار . . ومن تلاميذها ومنها ذلك الشاعر القائل :

الخالدان : لا أقول : الشمس : شعرى والزمان !!

وما ظنك بشاعر أو أديب على هذا المستوى . . تشتبك معه فى حوار حول قضية ما ؟ . . هل يمكن للقاء على هذا النحو أن يقدم إليك دقيقاً ؟!!

وما أكثر ما يفعل الغرور بأصحابه : أراد نصر بن سيار أن يسخر من أعرابى . فقال له : هل أتخمت قط ؟! فقال له الأعرابى : أما من طعامك . . وطعام أبيك . . فلا !! ولقد جاء الرد قاصماً . . فلقد حم «نصر» من كلمة قالها . . وكان من ورائها هوانه . . لقد ركبه الغرور . . فسخر من رجل أمى . . صار حية تسعى !! ألا إنه حصار الغرور .

تحرير الحوار من آفة الغرور

قال أحد الحكماء : أستطيع أن أحول هذا المغرور إلى مجنون .. وفى شهر واحد ! فلما قيل له : كيف ؟ قال : بالمديح والتملق ! وما أكثر ما تحفل ساحات العلم بالمديح الكاذب .. والتملق البغيض .. وما يترتب عليهما من الغرور الذى يجعل من الحق حكراً على فئة من الناس .. وجدوا من يزينون لهم أعمالهم وأقوالهم .. فظنوا أنهم يحسنون صنعاً !

وقد أحس علماؤنا الصالحون بعظم مسئوليتهم عن وقف هذا الزيف.. فحاربوه فى أنفسهم أولاً .. ثم فى تلاميذهم ثانياً :

ومن الأول :

ما روى من أن الإمام - رحمه اللَّه تعالى - كان يبكى كثيراً إذا قيل له : الناس مفتونون بك . ثم يقول : هذا استدراج !!

ومن الثانى :

ما روى عن «معاذ بن سعيد» قال : كنا عند عطاء بن رباح .

فتحدث رجل بحديث . فاعترض له آخر . فقال عطاء : سبحان اللَّه !! ما هذه الأخلاق؟! ما هذه الأحلام ؟! [العقول] إنى لأسمع الحديث من الرجل .. وأنا أعلم به .. فأريه من نفسى أنى لا أحسن منه شيئاً ! .

وهكذا يتحول الدرس العلمى إلى درس عملى فى الأخلاق .. التى هى ثمرة العلم .. هذه الأخلاق التى تفرض على الزميل أن يحترم مشاعر زميله .. ورأيه أيضاً .. ولا يحاول أن يتعالم .. ليظهر فى الصورة وحده .. بل أنه مع كل زملائه شركاء فى البحث عن الحقيقة التى هى غايتهم جميعاً .

وكانت إجابة الأستاذ درساً عملياً .. لا يلقى فيه العلم دروساً .. بل قيما يتمثلها هو أولاً .. وقد ذكرنا الأستاذ بهذا الدرس هى عن مقاطعة المتحدث قبل أن يتم كلامه .. وهو ما عناه الشاعر القائل :

ولا تشارك فى الحديث أهله وإن عرفت فرعه وأصله !!

«أصل الداء» : ومن المفيد أن نبحث عن أصل هذه العلة . . ونقرأ فى ذلك قوله تعالى : { بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله } وتحصر الآية الكريمة العلة فى أمرين هما :

١- الجهل { بما لم يحيطوا بعلمه} .

٢- تشوه المعلومات أو نقصها { ولما يأتهم تأويله} .

ويعنى ذلك أن المغرور لو كان عالماً مستوعباً . . لكان تلقائياً متواضعاً . . لأنه لا يشوش إلا الطبل الأجوف !! وإذ يهدم الغرور ولا يبنى . . فإن العلم هو العاصم وإذا ما تحاور العلماء المخلصون حول قضية ما . . فإنك لا تسمع نشيجاً . . وإنما أنت أمام الاختلاف الذى يتوج فى النهاية بالائتلاف .

{ قد يسمع المحدث بعض الحديث . ويفوته سماع بعضه : روى أن عائشة - رضى اللَّه عنها - أخبرت أن أبا هريرة - رضى اللَّه عنه - حدث أن رسول اللَّه ﷺ قال : إن يكن الشؤم . ففى ثلاث :

الدار . والمرآة . والفرس . وهذا الحديث معارض لما روى فى أحاديث كثيرة : أن رسول اللَّه ﷺ نهى عن التطير . فغضبت عائشة وقالت : واللَّه ما قال رسول اللَّه قط . وإنما قال : أهل الجاهلية يقولون : إن يكن الشؤم ففى ثلاث :

الدار. والمرآة . والفرس.فدخل أبو هريرة فسمع آخر الحديث. ولم يسمع أوله.

إن عائشة - رضى اللَّه عنها - تكتفى بالغضب . . إنتصاراً لسنة رسول اللَّه أن تنال. . ولكن يبقى لأبى هريرة احترامه . . لكن رجلاً. . كالنظام « يهاجم أبا هريرة- رضى اللَّه عنه - مما شجع مغرضاً مثل «جولد زهر - على أن يهاجم أبا هريرة . . وما هاجمه إلا لأنه وعاء السنة المطهرة وحاملها للأجيال .

أما بعد :

فقد ابتليت مجالس العلم . . ومنتدياته بمغرورين . . ومن نعمة اللَّه تعالى أن

كان فى الأمة من تصدوا لهم.. تقليماً لأظافرهم.. وعودة بهم إلى أحجامهم الطبيعية: روى أن شاعراً مغروراً أراد أن يفرض على قبيلته أنه شاعرها الذى لا يبارى

فأحالوه إلى بشار بن برد. واستمع إليه بشار.. ثم قال له: ما أظنك إلا من بيت النبوة ؟! قال الرجل: لماذا ؟! قال له بشار: لأن اللّٰه تعالى يقول: ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغى له** ﴾.

وحين ادعى رجل أنه يجيد فن العروض.. وكان جاهلاً به - فلما ذهب إلى الخليل بن أحمد.. عرف جهله.. فأراد أن يلقنه درساً بطريق غير مباشر.. فقال له: يا بنى: قطع معى هذا البيت:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وكان الصمت أبلغ من الكلام !!

حوار القمم

لسلفنا الصالح مواقف تشرح الصدور: لقد جعلوا من الحوار سبيلاً إلى الهدى: من حيث كان القول فيه والعمل خالصين لوجه اللّٰه الكريم.. فحقق الحوار آثاره..

أ- دخل أعرابى على هشام بن عبد الملك. فقال له هشام: عظنى: فقال الأعرابى: كفى بالقرآن واعظاً ثم قرأ ﴿ **ويل للمطففين**﴾ الآيات ثم قال: يا أمير المؤمنين: هذا جزاء من يطفف الكيل.. فكيف بمن أخذه كله ؟!! قال هشام: كم أتى عليك ؟ فقال الأعرابى: لو أتى على شىء تقتلنى فقال هشام: وكيف أقول ؟ قال له: قل: كم مضى من عمرك ؟ وقد ذكروا أن الرشيد أقام وليمة. ودعا الناس إليها.. فلما دعا أبا العتاهية قال للرشيد:

عش ما بدا لك سالماً فى ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد: أحسنت.. ثم ماذا؟.. فقال:

يسعى إليك بما اشتهيت لدى الرواح وفى البكور.

فقال الرشيد: أحسنت.. ثم ماذا؟ قال:

فإذا النفوس تقعقعت فى ظل حشرجة الصدور .

فهناك تعلم موقناً .. ما كنت إلا فى غرور .. فبكى الرشيد .. فقال :

وزيره الفضل بن يحيى لأبى العتاهية : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره .. فأحزنته؟ .

فقال له الرشيد : دعه .. لقد رآنا فى عمى .. فَكَرِهَ أن يزيدنا ..

ب- بلغ «أبا جعفر المنصور» أن جعفر بن محمد سَبَّهُ . فأقسم ليقتلنه شر قتله.. ثم أحضره .. ولما سلم «جعفر» لم يرد الخليفة السلام . لكنه قال : روى أبى عن جدى أن الرسول ﷺ قال : ينصب للغادر لواء يوم القيامة .. يعرف به . فرد «جعفر» قائلاً : وروى أبى عن جدى : ينادى يوم القيامة : فليقم أهل الفضل .. فيقوم كل من عفا !! فأطرق الخليفة ملياً .. ثم عفا عنه .

فانظر كيف كان الخليفة هشام يطلب العلم .. حتى من الأعرابى .. فإن رثاثة ثياب صياد الجواهر .. لا تقلل من قيمة جواهره .. ثم كيف يطول نفسه.. ويجمل صبره؟ بينما العالم يحاصره بالمواعظ التى تحرجه .. وينتهى حواره .. بالتسليم لحكمة الأعرابى البسيط .. ولم يكن أجمل منه إلا الرشيد فى حواره مع أبى العتاهية والذى استرسل معه هارون الرشيد رغم شدة الموعظة وحدتها .. وكيف نهر وزيره الذى عاتب أبا العتاهية واقفاً أى : الرشيد مع الناصح الأمين ؟ .

ثم تأمل كيف واجه أبو جعفر من سَبَّهُ .. بالحديث الشريف لينوب عنه فى التعبير عن موقف ؟ .. وكيف رد عليه غريمه بنفس المنطق .. بالسنة الشريفة ؟ .. وكان لابد أن ينتهى الحوار بالعفو ما دامت قد تراجعت حفوظ النفس .. وصار السلطان.. للبرهان .

ومما يروى فى هذا الباب

أن أبا بكر - رضى الله عنه - أقطع «عُيَيْنَةَ بن حصن» و«الأقرع بن حابس» قطعة أرض. لكنه استشار من حوله . فلما استشار عمر - رضى الله عنه - . رفض . بل ومحا الكتاب قائلاً لهما : اجهدا جهدكما .. افعلا ما شئتما! ثم قصد أبا بكر فقال

له: الأرض لك. . أم للمسلمين؟ فأجابه الصديق: لقد استشرت من حولى . .
فقال عمر : لكنك تقول : إنها للمسلمين جميعاً . وأنت لم تستشرهم جميعاً ؟!
فقال أبو بكر:

لقد قلت: إنك أقدر على هذا الأمر منى يا عمر ! ولكنك غلبتنى عليها «الخلافة» حين تسرعت ومددت يدك بمبايعتى !!

لقد اتخذ الحاكم القرار فعلاً بمنح الرجلين قطعة أرض . . ولكن بعد أن استشار من معه من كبار الصحابة . . ولم يكتف عمر - رضى اللَّه عنه - برفض القرار. . لكنه محاه بيده محواً. . وكان من الممكن أن تشتد الأزمة هنا بين الصاحبين . . غير أن الحوار الهادف تكفل بإنقاذ الموقف. . هذا الحوار الذى وقف فيه الحاكم فى موقف الدفاع عن النفس. . بالدليل . . لا بهيبة السلطان . . بيد أن عمر يتصدى له أيضاً بالدليل الإلزامى وهو: ولكنك تقول : إنها للمسلمين جميعاً. . وأنت لم تستشرهم جميعاً . .ولا يجد الخليفة عضاضة فى الرجوع إلى الحق . . والإعلان على الملأ . . بأحقية عمر بالخلافة دونه . .ولولا تسرع عمر بمبايعته. .لكان هو الخليفة . . لو أراد وهكذا كان خلفاؤنا . . وكان علماؤنا : خلفاء . . يسألون . . وعلماء يجيبون. .خلفاء يسألون. . بل ويلحون ولا يتحرجون . . وإذا ذُكِّرُوا لا يستنكفون. . وعلماء يعظون . . ولا يكتمون . . وما أحوج أمتنا إلى : علماء . . ينصحون . . وأمراء . . ينتصحون !!

أما بعد :

فقد اقتضت حكمة اللَّه تعالى ألا يكون خير محض . . ولا شر محض . . فالشر . . والخير . . متداخلان فى كيان الإنسان .

هذا الإنسان الذى كان . . وسيظل عالماً من الأسرار ما يغرى . الأمر الذى يجعل من التعامل معه رحلة محفوفة بالمخاطر . . وسباحة طويلة لا يطيقها إلا ربان ماهر . . قادر على السباحة فى المسافات الطويلة . .

صعوبة الرحلة :

وقد اختلف الدعاة والمربون فى التعامل معه : بعض الناس .. لم يعرف قانون حياته .. ولا سر طبيعته .. والبعض الآخر : يعرف .. لكنه لا يطبق ما يعرف .. وقد احتدم الخلاف بين الفريقين ثم وصل إلى حد التناقض فى التقدير والحكم :

هناك دعاة الشرع : يتهمون الماديين بالإلحاد والمروق. واتباع كل ناعق . والماديون يتهمون الشرعيين بأنهم :

جامدون متخلفون . يريدون فرض وصايتهم على الأمة باسم الدين .. ومن ثم يمضى الصراع بينهم من سيء إلى أسوأ ..

بل إن الخلاف بين الشرعيين أنفسهم كان متفاقماً .. إلى الحد الذى قد تشاهد معركة تتشابك فيها الأيدى فى سنة قبيلة أو بعدية .. مع أن الخلاف لم يكن بين حق وباطل .. وإنما كان بين : الصحيح والأصح !!

من صور الجدال بالتى هى أحسن

فى سورة النساء يقول الحق تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً . الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا . وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا . وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً . إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً . فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً . يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [٣٦-٤٢] .

يعرض الحق تعالى قضية التوحيد : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ .

ثم ذكر ما يفرضه التوحيد من قيم يسعد فى ظلها الموحدون ..وهى ما تشير إليه الآية الكريم : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة : ٨٣] .

لكن أناساً ضلوا فقابلوا الإيمان بالجحود والنكران.. فكشفت الآيات عن خبيئتهم بذكر سوءات أنفسهم.. ومنها: الاختيال.. والبخل .. بل والتبخيل.. والرياء .. وكتمان الفضل .. وأن ذلك كله منبجس من عين حمئة نجسة هى :

الكفر باللَّه سبحانه وتعالى وباليوم الآخر .. وصحبة الشيطان الذى سول لهم ذلك .

وتجيء الآية التاسعة والثلاثون، والآية الأربعون .. لتحاورهم فى موقفهم الخاطىء.. بعد أن تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود أولاً بالترغيب وذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا** ﴾ [النساء : ٣٩].

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء : ٤٠].

والمعنى :

ماذا عليهم ؟.. ماذا يحدث لهم لو آمنوا ؟

إنهم الكاسبون الرابحون حقاً .. لو تأملوا .. ثم اتقوا وآمنوا .. ثم اتقوا وأحسنوا ؟.

إنهم مطالبون بالإيمان باللَّه تعالى .. والتكليف سهل .. لأن فطرتهم ابتداء مهيأة للإيمان .. من حيث إن كل مولود يولد على الفطرة .. ولم يكلفوا بما ينقض هذه الفطرة أو يناقضها .. ثم الإيمان باليوم الآخر : ويحملهم على الإيمان به : أن الدنيا لا تتسع لعقاب كل ظالم والانتصاف لكل مظلوم .. من أجل ذلك كان لابد من الإيمان بدار هى الحيوان .. يلاقى كل إنسان جزاء ما قدمه .. وتجد فيه كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .. وإلا فإنه فى غياب عقيدة الإيمان باليوم الآخر .. سوف تتحول الحياة إلى مسبعة يأكل القوى فيها الضعيف .

وحين يكلفون بالإنفاق : فهم لا يطالبون بكل ما يملكون .. وإنما : ببعضه .. ببعض من كل هو رزق من اللَّه تعالى ابتداء .. وما الإنسان فيه إلا سبب .. وكيل مؤتمن ..

وهم فى ذلك كله : يتعاملون مع رب عدل .. حكيم .. عليم يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .. وحين يقفون بين يديه تعالى فى عرصات القيامة لن

يظلموا .. ولن يهضموا ولو قدر مثقال حبة خردل .. فالظلم وإن لم يكن مستحيلاً على قدرة اللّه تعالى .. لكنه مستحيل فى حكمته سبحانه .. وليس هذا فقط : فهو سبحانه فضلاً عن عدله تعالى .. يضاعف ثواب الحسنة إلى ما يشاء تعالى من أضعاف .. ثم لديه سبحانه من صور الفضل والثواب ما لا يتناهى .. ومن شأن كل عاقل أن يستسلم لهذا الفضل السابغ .. فيؤمن ويطيع .. ومن فضل اللّه تعالى أنه سبحانه بعد هذا الترغيب .. وهذا التودد والتطلف .. ينذر القوم بسوء العقبى .. لو لم يطيعوا .. والإنذار فى حد ذاته نعمة كبرى .

من حيث كان مانعاً - أو ينبغى أن يكون مانعاً من التردى فى هوة الضلال والخبال . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا . يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا** ﴾ [النساء : ٤١-٤٢].

والآية الكريمة تعبر عن لحظات الهول .. يوم لا يكون للإنسان حول ولا طول : حين يرفع الستار عن الباخلين .. والمنافقين .. والغادرين .. تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت .. يستمعون .. لا إلى قرار الاتهام .. وإنما يساقون إلى الموت الزؤام .. كل أمة يشهد عليها نبيها .. لماذا ؟ يقول المفسرون : [ليكون ذلك حجة على الخلق . فتكون الحجة على المسىء أبلغ . والتبكيت له أعظم . وحسرته أشد . ويكون سرور من قبل ذلك من الرسول وأظهر الطاعة .. أعظم] .

وعندئذ : يود الذين أجرموا : بالكفر باللّه سبحانه .. ثم بمعصية الرسول .. يود المجرمون بمرتبتين : يودون : لو تشق الأرض .. ثم يدفنون فيها .. ثم تسوى بهم .. كأن لم يكونوا من قبل . لما يلاقونه من أهوال .. وما يحسون به من هوان ولا يستطيعون يومئذ أن يكتموا كما كانوا يعملون وما كانوا يهرفون .

أما نحن المسلمين :

فإننا نشهد للرسول ﷺ .. بالبلاغ وبهديه لنا بالتصديق .. ثم يكون الفرج الأكبر .. كما جاء فى حديث الشفاعة : وفيه يقول اللّه عزَّ وجلَّ : « ارجعوا :

فمن وجدتم فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . . فأخرجوه من النار » .

وفى رواية : [أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار . فيخرجون خلقاً كثيراً يقول الراوى اقرءوا إن شئتم « إن اللَّه لا يظلم مثقال ذرة » ! .

[خانتنا حاشية الذاكرة فى الإجابة عن سؤال :

هل كان الاعتراض على بشرية الرسول خاصاً بمشركى مكة . . أم كان عاماً ؟ . .

والجواب : أنه كان خلقاً تحدر من الأسلاف إلى الأخلاف . . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : ٥-٦] .

والآية تحذير للمخاطبين من المؤمنين . . حتى لا يتورطوا فيما تورط فيه الجاهلون . . من قبل . . الجاهلون الذين كان من مظاهر جهلهم : أن الرسل جاءتهم بالهدى بالبينات . . الواضحات . . فلم يقابلوا الرأى بالرأى . . ولا الحجة بالحجة . . ولا حتى بالسكوت خجلاً . . ولكنهم تهافتوا . . بهذا المراء الذى سول لهم أن جعلوا المقتضى للهداية مانعاً منها . . وذلك ما حكاه القرآن عنهم . ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن : ٦] فكفروا . . وتولوا . . ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١١٧].

طبيعة الحوار
ومستويات المدعوين

تختلف لغة التخاطب . . باختلاف نوعية المخاطبين . . يقول المفسرون بياناً لذلك . . ودليلاً على أهمية جدال أهل الكتاب بالتى هى أحسن . . بخلاف المشركين : [أن المشرك . . جاء بالمنكد . . فكان اللائق أن يجادل بالأخشن . ويبالغ فى تهجين مذهبه . وتوهين شبهته . ولهذا قال تعالى فى حقهم : «صم بكم عمى» وقال سبحانه : « لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » وأما أهل الكتاب : فجاءوا بكل حسن . . إلا الاعتراف بالنبى عليه الصلاة والسلام :

فوحدوا . . وآمنوا بإنـزال الكتب وإرسال الرسل والحشر . . فمن أجـل إحسانهم هذا يجادلون : أولاً بالأحسن : ولا تستخف آراؤهم . ولا ينسب إلى الضلال آباؤهم . . بخلاف المشرك .

إلا الذين ظلموا :

لكن . . إذا كان ذلك لأهل الكتاب حقاً مكتسباً . . فهو للمنصفين منهم . . أما الجاحدون المعـاندون . . فقد حرموا أنفـسهم منه بسوء اختـيارهم . . ومن صور هذا الظلم : تلك الحملة الظالمة والتى تولى اليـهود كبرها : فإذا كان المشركـون أغبياء فى غشمهم واستهزائهم بالرسول ﷺ فـقد كان من واجب اليهود - وهم أهل كتاب - أن يحترموا أنفسهم وهم يواجهون الإسلام . لم تكن مشكلة اليهود هى : الجهل . . ولكنهم أوتوا من قبل الهوى . . الذى سول لهم وأملى لهم أن يوجهوا الحوادث على مزاجهم الخاص . . وبدل أن يقابلوا الوفاء بالوفاء . . فقد واجهوه بالنداء . . فقالوا: من شؤم محمـد أنه منذ قدم المدينة نقصت ثمارها . وغلت أسعـارها . . لقد غشى الهوى على بصائرهم فتعاموا عن الأسباب الحقيقية التى تصنع المواقف . . والحق هنا: أنه قانون العرض والطلب . . فقد ازدحمت المدينة بهجرته الشريفة . . وكانت الوفود تترى مـن كل أصقاع الدنيـا . . فسـحبت السلع من السـوق . . ومن ثم . . غلت الأسعار .

وقد حكى القرآن قـول الذين حاوروا الإسلام على طريقتـهم هذه الخاصة وذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .

لقد حـرموا الفقه فـجاء حوارهم ظالماً . . صادراً عن عـقدة الحقد والحـسد . . والغرور . . الذى يحاول فرض وجهـة النظر بالقوة . . وبالمنطق الغشوم . ومن آفاته أنه مانع من الاسترسال فى الحوار . . قاطع رحم الأخوة بين المتحاورين .

واجب الداعية :

ولا يجمل بالمحاور المسلم أن يضيق صدره بهذا الغرور ضيقاً يفر به من ساحة الحوار . . وإنما عليه أن يظل مستشعراً اختلاف الطبائع وما يفرضه من تغيير أسلوب التعامل مع كل صنف بما يناسبه : ففى الناس . . الناضج العقل . . المستنير التفكير . . وفيهم البليد . . الذى هو كما قيل : حجر صلد مصبوب فى بيئته الاجتماعية التى صارت تقاليدها إلها يعبد من دون اللّه . . وفيهم المشاكس المعاكس للتيار . . يمارى فى البديه ويسترسل فى المراء استرسال السفيه . . وينبغى منازلة كل لون بما يليق . . لنكون أجدر بما نرجوه من توفيق .



الفصل الثالث

حوار

أ- أهل الكتاب

ب- والمشركين

طبيعة الجدال
مع أهل الكتاب

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ولاَ تُجَادلوا أهل الكتاب إلاَّ بالَّتى هى أحسنُ إلاَّ الذّين ظَلَمُوا منهم وقُولُوا آمنَّا بالذّى أُنزلَ إلينا وأُنزلَ إليكُم وإلهنا وإلهكُم واحدٌ ونحنُ لهُ مُسلمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

من خصائص المحاور المسلم :

يحمل المجادل المسلم روح الإسلام فى ساحات الجدل .. الإسلام المسماح .. الودود .. والذى يواجه مخالفيه فى الدين بهذه الروح .. ولأهل الكتاب نصيبهم الأوفى من هذه السماحة .. وهذا الود .. كما تشير الآية الكريمة : فمن خصائص المحاور المسلم كما قيل : [أن يكون منصتاً لمحدثه .. فالمتحدث البارع .. مستمع بارع كذلك . فكن حسن الاستماع .. ولا تقاطع من تحاور .. بل استمع إليه كما تحب أن يستمع إليك .. إن كثيراً من الناس يفشلون في ترك أثر طيب فى نفوس من يحاورونهم لأول مرة : لأنهم لا يصغون إليهم باهتمام : إنهم يحصرون كل همهم فيما سيقولونه لمستمعيهم .. فإذا تكلم المستمع .. لم يلقوا له بالاً .. مع أن الناس يفضلون المستمع الجيد .. على المتكلم الجيد .. يقول ابن المقفع : تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام .. ومن حسن الاستماع : إمهال المتكلم حتى ينقضى حديثه . وقلة التلفت إلى الجواب . والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم .. والوعى لما يقول : ومن وصية الحسن بن على - رضى اللَّه عنهما - لابنه وهو يعظه. يا بنى : إذا جالست العلماء .. فكن على أن تسمع أحرصى منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ولا تقطع على أحد حديثاً .. مهما طال .. حتى يمسك ..

قال الشاعر :

إن بعض القول فن　　فاجعل الإصغاء فناً

وعلى هذا الأساس تأمرنا الآية الكريمة بجدال أهل الكتاب بخاصة بالتى هى أحسن وقد زعم المفترون على اللَّه الكذب وعلى رسوله . . زعموا أن الرسول ﷺ كان يكيل بكيلين .

فهو . . عندما كان فى مكة جامل أهل الكتاب : لما كان مطارداً من المشركين فلما قويت شوكته فى المدينة حاربهم . . وهو زعم تبطله الآية الكريمة التى تقول : الأصل . . أنه لا جدال . . فإذا كان ولابد منه . . فليكن بالحسنى . . بل بالأحسن . . فإذا ظلم المجادل . . وخرج عن الخط . . ولجأ إلى المهاترة . . فليتوقف الجدال . . لأنه صار عقيماً . . ثم ليعلن المسلمون أنه لا جدال معكم . . من حيث إنه صار مراء لا مسوغ له : فنحن نؤمن بكتابنا . . وكتابكم . . وإلهنا وإلهكم واحد . . ونحن له مسلمون . . وإذن . . فلا حاجة بنا ولا بكم إلى حوار . . بعد ما ظهر إتحادنا فى هذه الأصول . التى نستمسك بها . ولا نساوم عليها .

يقول صاحب الظلال :

{ إن الدعوة دعوة إلى سبيل اللَّه . . لا لشخص الداعى . ولا لقومه فليس للداعى من دعوته إلا أن يؤدى واجبه للَّه . لا فضل له يتحدث به . . لا على الدعوة . ولا على من يهتدون به وأجره بعد ذلك على اللَّه . والدعوة بالحكمة . . والموعظة الحسنة . . وبالجدل بالتى هى أحسن . . بلا تحامل على المخالف . . ولا ترذيل له وتقبيح . حتى يطمئن إلى الداعى . . ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل . ولكنه : الإقناع والوصول إلى الحق . . فالنفس البشرية لها كبرياؤها وهناؤها . وهى لا تنزل عن الرأى التى تدافع عليه إلا بالرفق . . حتى لا تشعر بالهزيمة . . وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى . وقيمتها عند الناس : فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلاً عن هيبتها واحترامها . والجدل بالحسنى هو الذى يطامن هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل أن ذاته مصونه وقيمته كريمة . . وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة فى ذاتها . . والاهتداء إليها . فى سبيل اللَّه . لا فى سبيل ذاته . . ونصرة رأيه . . وهزيمة الرأى الآخر } أ.هـ .

وذلك كله مشدود إلى القاعدة الأصلية التي تحكم تصرف الداعية وهي أن الحماس المندفع هجوماً على الآخرين لا مسوغ له .. لأنك أيها المجادل لا تدرى من هو الضال .. ولا من هو المهتدى .. وإذن فالحكم ليس إليك .. وإنما إلى العليم الخبير سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم :٧] .

أما بعد :

فإن الداعية يبتلى بالمدعو .. كما يبتلى المدعو بالداعية . ولكن لا نسبة بين هم الداعى .. وهم المدعو : فالمدعو : يواجبه داعية واحداً ..

أما الداعى :

فإن همه بعدد من يدعوهم .. وما أكثرهم .. وإذن .. فبلاء المدعو أخف .. وعلى الداعى أن يتسلح بالصبر الجميل فى مواجهة المدعوين .. والمدعو المشاكس يصفه خاصة .. فعند ما يكل عقل المدعو .. ويتجمد فكره .. ويعجز عن السباحة فى المسافات الطويلة .. فعلى الداعية أن يعتزله .. أن يتوقف عن الاسترسال فى حوار عقيم .. واعتزاله عندئذ لن يكون هروباً من الجدل .. لكنه التوقف الموقوت للتزود بالوقود .. تأهباً لاستئناف اللقاء من جديد .. وهكذا فعل إبراهيم عليه السلام كما يشير قوله تعالى فى سورة «مريم» : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم : ٤٨] .

لقد انطلق الخليل عليه السلام هنا من مشاعر الإشفاق .. لا من مشاعر الكراهية.. على ما يقول الشاعر :

وأخشى الليالى الغادرات عليهمو لأن الليالى غير مأمونة الغدر !

ومهما يكون من أمر .. فإن الخاس الحقيقى هم الظالمون .. أما الداعى إلى اللّه.. فإنه كاسب معركته وإن لم يحقق نصراً حاسماً .. وصدق القائل : وإن

ترحلت عن قوم وقد قدروا - ألا تفارقهم . . فالراحلون همو !!

{ موقف الإسلام من أهل الكتاب}

سأل سـائل بعـذاب واقع - واقع به هو - أسفـا على السلام الذى لم يلتـزم به الإسلام : يقول : { إذا كـان الإسلام دين السلام والتسامح والأخـوة . فكيف نفسر الآية الكريمة المذكـورة فى سـورة المائدة والتى تقـول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا- والكلام موجه للمسلمين - **لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ** - أصدقاء - **بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ** - أى يتخذهم أصدقاء وأحمياء له - **فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [المائدة : ٥١} .

ونقول وبالله التوفيق :

عندما يقـرأ الكتابى هذه الآية الكريمة . فلسوف يجد لهـا فى حسه وقعـاً أليماً. وهذا الإحسـاس وارد . ولكن . مما يخفف هذا الإحسـاس - ولا نطمع فى إزالته - إدراك الظروف التى نزلت فـيها الآية الكريمة : فـفى مستـهل الدعوة . وفى عـهدها المدنى . . كانت هناك علاقات تحالف وتناصر بين بعض المسلمين . وبعض اليهود .

من إفرازات هذا التحالف :

استـغل اليهود هذا التـحالف فتسللوا من خـلاله فى محاولات مكررة لاخـتراق الصف المؤمن . إرادة خلخلته .

وقد استطاع الإعـلام اليهودى أن يحقق بعض مآربه حين صور اليـهود بأنهم قوة لها وزنها .

الأمـر الذى ظهرت آثاره فـعلاً . . لدى بعـض ضعـاف الإيمان الذين ظلوا على ولائهم القديم لـليهود { راغـبين فى موالاتهم : خـوفاً من صروف الزمـان . وتقلب الأحوال . وحاجتهم إلى معونتهم } .

وهو ما تشيـر إليه الآية الكريمة التالية لهـذه الآية . . وهى قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ

أمرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢] .

ولاحظ من قسوة الموقف : أن مرضى القلوب يسارعون فيهم .. إنهم ذلك الفراش الحائر .. الفزع .. الذى ينطلق هلوعاً .. لا يلوون على مال أو ولد .. ليكونوا هذا الهباء الذى يندس فى الكيان الكبير .. محتمياً به .. ذائباً فيه .. فإذا هو لا شىء .

وفى الوقت الذى تتبجح فيه الوثنية فى مكة معلنة : [لنا ديننا .. وليس لكم دين .. ومن حقنا أن نعبد الأوثان .. وليس من حقكم أن تعبدوا الواحد الديان]!؟ فى الوقت الذى يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة : ٦] .

يقول المشركون : ﴿**لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ [فصلت: ٢٦].

فى هذا الوقت الذي فيه يرضى القتيل وليس يرضى القاتل .. والذى يتنادى فيه ذلك التحالف بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .. كان لابد من حسم القضية .. والقضاء على هذه التبعية .. بتحديد معالم الشخصية الإسلامية .. التى لابد أن تكون مستقله متميزه .. غير قابلة للذوبان فى قومية أخرى .. وأمة أخرى لا تدين بدينها . ذلك بأن المسلم يقيم حياته على هدى القرآن .. وهو من القرآن فى واحد من موقفين .. لا ثالث لهما : فالقرآن : حجة له .. أو حجة عليه .. أما الاحتمال الثالث .. وهو اللعب على الحبال : لا له ولا عليه .. فهو الاحتمال المرفوض .. من حيث كان ميوعة تأباها إيجابية المسلم المنتسب إلى أمة الوسط .. الشاهدة على الناس ..

من أجل ذلك كان لابد من حسم القضية بهذه الآية الكريمة لتظل أمة الإسلام.. فى وسط الدائرة .. لا فى طرفها .

وقفة بين يدى الآية الكريمة :

ونبادر أولاً فنوضح معنى الولاية المنهى عنها :

تقول كتب اللغة : الولاية : النصرة . والتحالف . تقول : توليت فلاناً : اتبعته ورضيت به . ومعنى ذلك أننى كمسلم : منهى عن ولاية من لا يدين بدينى : لأن من تولى قوماً على غير ملته . . فهو متبع لهم . . بل هو راض عنهم . . وبالتالى : إذا رضى عنهم . فقد رضى عن دينهم .

من هم الذين نهينا عن ولايتهم؟

بنص الآية الكريمة : اليهود والنصارى . ولكن من حق البحث العلمى النزيه أن يسأل الباحث القرآن نفسه وقد رضيه حكماً ودليلاً . . ليقول له : إن المطلق هنا . . يحمل على المقيد هناك . . هناك وفى الآية السابعة والخمسين من السورة نفسها : وهى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة: ٥٧].

ومن صور هذا الاستهزاء ما حكته الآية التالية : ﴿ **وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٨].

إذن . . فمن حق الأمة الإسلامية ألا توالي إلا اللّه ورسوله . . وأن ترفض مولاة . . من ليس الأمر على إطلاقه . . وإنما هى ممنوعة من الثقة بمن لا يثق بها ممن يستهزئ بدينها ومقدساتها . ومن المفيد هنا أن نشير إلى ما قرره المفسرون من تحميل اليهود كبر هذه الحملة الظالمة . . دون النصارى : يقول القرطبى : « نهاهم اللّه أن يتخذوا اليهود والمشركين أولياء وأعلمهم أن الفريقين اتخذوا دين المؤمنين هزواً ولعباً » حـ ٢٥ / ٢٢٢٠ .

[وقيل المعنى : لا تتخذوا المشركين والمنافقين أولياء . بدليل قولهم : إنما نحن مستهزئون. والمشركون كلهم كفار. لكن يطلق فى الغالب لفظ الكفار على المشركين. فلهذا فصل ذكر أهل الكتاب من الكافرين] (١) .

بل إن بعض العلماء يقول : [الموصوف بالهزء واللعب فى هذه القراءة : اليهود لا غير . والمنهى عن اتخاذهم أولياء : اليهود والمشركون] (٢) .

ومع هذا فنحن منهيون أن نتخذ من لا يدين بديننا أولياء . . مهما كان دينه أو

(١، ٢) نفس المرجع والموضع .

مذهبه .. وإذا دخل اليهود والنصارى فى هذا العموم .. فإنهم لا يدخلون بوصف كونهم «أهل كتاب» وإنما منعنا من موالاتهم لصفات فيهم اقتضت ذلك .. وهذا هو السر كما أشار المفسرون : [ونكتة التعبير عنهم باليهود والنصارى دون أهل الكتاب هى : أن مواقفهم تلك من الإسلام .. إنما كانت بحسب جنسيتهم السياسية : لا من حيث إن كتابهم يأمرهم بذلك] [1] .

الصداقه والولاية :

ولابد من الاعتراف بأننا مختلفون .. ذلك بأن الاختلاف هو قدر البشرية المحتوم .. لكن الاختلاف .. لا يمنع الإنصاف .. ومن الإنصاف : أننا نتزوج منهم.. وطعامهم حل لنا : ثم نحافظ على كرامتهم ومشاعرهم أن تهان : حتى إنه كان من مقررات الإسلام .. أن من آذى كتابياً لم يشم رائحة الجنة .

المهم أنه لا تكون مولاة فى العقيدة . ولا فى النظام التشريعى .. إن من حق الحزب السياسى اليوم أن يحتفظ بكيانه وأسراره .. لتظل شخصيته عصية على الذوبان فى حزب آخر .. بل إن النادى الرياضى فى أوروبا يرفض أن يلعب له لاعب لا يدين بمذهبه ..

وإذن .. فمن حق الأمة الإسلامية أن تفعل كل ما يحفظ كيانها .. وأن تتجنب كل ما يهز ذلك الكيان .. والمنهى عنه فى الآية الكريمة ليس هو «الصداقه» كما فهم الباحث .. وإنما هو الولاء بمعناه الذى أشرنا إليه .

أهل الكتاب والكفار :

ولا بأس أن نشير فى النهاية إلى أن سياسة الإسلام مع أهل الكتاب غير سياسته مع مشركى العرب . كما يقول صاحب المنار : [ولذلك أجاز فى هذه السورة - المائدة وهى آخر ما نزل من القرآن - أكل طعامهم . ونكاح نسائهم .. وشرع فى سورة «**التوبة**» إقرار الجزية منهم . وإقرارهم على دينهم .

ونهى فى سورة «**العنكبوت**» عن مجادلتهم إلا بالتى هى أحسن . وفى الآية :

---

(١) [illegible] - ٣٦٨ .

يميزهم عن المشركين فى إطلاق اللقب : إذ خص أهل الكتاب فى المقابلة بلقب : أهل الكتاب ولقب المشركين بالكفار } .

وجاء فى المنار أيضاً : (١)

{ إن جميع المشركين لا يتخذون أولياء بحال من الأحوال . وأما أهل الكتاب : فإنما ينهى عن موالاتهم لوصف فيهم ينافى هذه الموالاة كاتخاذهم الإسلام هزواً ولعباً . . } .

وحتى على رواية أن المستهزىء كان نصرانياً . . فإن النهى عن ولايته لا بسبب دينه . . وإنما لما ارتكبه من مخالفة } .

لقد انتصر المسلمون . . وصارت لهم دولة فرضت احترامها على العالم كله . . وعندما تعطى ولاءها لغيرها . . فإنها تضيف إلى غيرها قوة تخصم أساساً من حسابها . . كما وأن فيها إقراراً بشرعية مذهب من انتصرت عليه . . وثقة له تناقض حقائق دينها . . وإذا كان ولابد من ولاية : فبعضهم أولياء بعض : لاتحاد ملتهم وتطابق وجهات نظرهم على الأقل : إذا كان الطرف الآخر هو الإسلام . وإذا كان هناك من المسلمين على مدار التاريخ من تنكب طريق الإسلام فلم يلتزم بسماحته ومودته . . فإنه من الظلم أن نحمل الإسلام وزر من أساء إليه .

---

(١) جـ ٦ عدد ٢٩ / ٦٣٨ .

من حيل العلماء

كان العقلاء من الناس حراصاً على حـضور مجلس عبد الرحمن بن الجوزى . . من حيث كانت نفحات دروسه عـافية تسرى في عقولهم وقلوبهم . . وذات يوم . . والحلقة العلمية معقودة . . تنازع ناس . . وعلت أصواتهم حول : أيهما أفضل : أبو بكر . . أم على – رضى اللّه عنهمـا – ؟ . وانحاز كل فريق لواحد منهـما . . وبلغ التعصب منتهاه . وكان لابد من فقـيه يفض هذا الاشتباك – حقناً لدماء المسلمين . . فلما طلب منه أن يحسم القضية قال :

أفضلهما : من كانت ابنته تحته !

ثم قطع درسه . . وعاد إلى بيته . . حتى لا يراجعه أحد فيما قال : وعندئذ قال أهل السنة : إذن . . فالأفضل هو : أبو بكر . لأن ابنتـه عائشة . . تحت رسول الله ﷺ . . وبنفس الحماس . . ونفس الثقة قال الشيعة : بل هو على لأن فاطمة بنت رسول اللّه ﷺ تحته !! .

ولقد نجح ابن الجوزى إذ نقل المعركة إلى المتخاصمين أنفسهم . . ناجياً بنفسه من كـيـدهم . . أجل نجح فى رده القـولى . . ثم فى رده العـملى بفض الحلقـة . . ثم عودته إلى البيت . . هكذا : بلا فلسفة . . ولا غرور . . ولا تعقيد للأمور !!

أين الخطأ ؟

فى موقف المتمارين :

هذا فوج مقتـحم ساحة الدرس الوقور . . وكان عليهم أن ينهـلوا من فيضه . . أن يقبسوا من نوره . . بيد أنهم لم يكونوا ينشدون الحق . . أو يسعوا للفائدة العلمية سعيها . . إنهم يعرفون الحق بالرجال . . ولا يعرفون الرجال بالحق : يكفى أن يقتنع واحد منهم برجل . . ليضيف إليه محاسن غيره من الرجال . . زوراً وبهتاناً .

فالريادة له . . دون سواه . . وقوله هو ما قالت حذام : وعلينا أن نختم بالعشرة إذا أردنا أن نحوز رضاه . . ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به . . فتدارسوا جميعاً فضائل أبى بكر، وعلى– رضى اللّه عنهما – إرادة الاقتـداء بها . . لو فعلوا [illegible]

قيلاً.. وأهدى سبيلاً .. لكنهم أرادوها معركة انتخابية تكشف عن صحة القاعدة القائلة : حبك الشيء يعمى ويصم .

ملكيون أكثر من الملك :

ولو كان أبو بكر .. وعلى - رضى اللَّه عنهما - على قيد الحياة .. ما وسعهما إلا أن يتعاملوا مع هذا النفر بسنة رسول اللَّه ﷺ ، والسنة هنا هى : رميهم بالتراب جزاء ما يصنعون من تبديد أعمالهم بل أعمارهم فيما لا يجدى .. وإلا .. فقد كان الرجلان كلاهما على غاية ما يكون الحب والوفاء والتقدير لصاحبه.

ذكروا أن رجلاً مدح عليا - رضى اللَّه عنه - فى حضرة ولده الحسن .. فقال الإمام لمن مدحه : اسكت .. وأين أنا من ثانى اثنين إذ هما فى الغار؟ .

وكأنما يقصد من بين ما يقصد أن يشعر ولده بأن هناك من هو أفضل منه .. وعليه ألا يغتر بمدح المداحين الذين قد يتجاوزون الحق إلى مالا يرضى اللَّه ورسوله.. وخيركم من يعرف للرجال أقدراهم .

ماذا فعل ابن الجوزى؟ :

لقد أسعفته البديهة الحاضرة بهذا الجواب .. الذى أغرق به القوم فى ضباب لم تنكشف به الحقيقة سافرة .. وحتى لا يكون هناك صدام مباشر بينه وبينهم .. ولم يكن إجراؤه العملى بأقل من قوله .. حين أصدر قراراً وبلغة العصر بتعطيل الدراسة من أجل تلاميذ مشاغبين لم يحترموا الدرس .. ولم يقدروا المدرس .. وحتى لا يدع فرصة لجدال عقيم منته قطعاً بما لا تحمد عقباه .

لقد كان ابن الجوزى مدرساً ناجحاً .. موسوعياً . وما كان يضيق بسؤال أبداً. . إن علم .. أجاب .. وإلا فإنه يعتزر .. لكنه غير مستعد أن يجيب عن سؤال غير مسترشد .. يتوجه به تلاميذ فارغون . عابثون .. ذلك بأنه قد يواجه مائة عالم كمثله .. لكنه يعجز عن لقاء جاهل .. أو متعصب .. لا ينشد الحق .. وإنما يريد الجواب مفصلاً على قدر مزاجه وهواه !! وهو ملمح من ملامح المجادل الحصيف . الذى يضيف إلى علمه .. قدرته على الحيلة .. وحسن التخلص .. ليظل محتفظاً.

قادراً على أن يفيد تلاميذه متجاوزاً سفاهة السهفاء . . ويذكرنا الموقف بأستاذ كانت له مدرسة على هذا المستوى : ذكاءً . . وحيلة . هو ابن عباس- رضى اللّٰه عنهما -: سأله رجل يوماً :

ما يوم كان مقدراه خمسين ألف سنة؟. فاتهمه ابن عباس . . { يعنى : بأنه يبحث فى المتشابهات } فقال السائل : إنما سألتك لتحدثنى !

يعنى : سألتك . . لتجيبنى . . لا لتوبخنى !! فأجابه ابن عباس قائلاً : هما يومان :

ذكرهما اللّٰه تعالى . . وهو أعلم بهما . . وأكره أن أقول فى كتاب اللّٰه تعالى بما لا أعلم !! وهكذا ينبغى أن يكون العالم فى مواجهة التافهين : بسلاح العلم . . وسلاح الذكاء . . يخرج العالم من براثن المعوقين . . كما يخرج الجمل المحمل بالملح . . بالعبور . . عبور نهر جار . . لا يبقى من الحمل شيئاً .

هكذا طبيعة العلاقة بين عشاق الدنيا :

تولد المودة المزعومة بينهم . . فى الشمس ثم تتنامى فى ضوء القمر . . ثم تعيش على الأرض . . وفى النهاية . . تموت المودة بالسكتة القلبية . . تموت . . لأن المودة يغيض ماؤها مع الأيام . . كلما اصطدمت بالمنافع الذاتيه . . ومن أجل ذلك يتناقص الرصيد . . ليصبح فى النهاية صفراً !! .

أما المتقون . . فإن حبهم . . مودتهم : كهذه الأصداف . . لا تخدج إلا بكسر المحارة . . إن حبهم لينمو . . متوهجاً . . فى وقدة الأحداث . . وعند تعرض هذه المودة لامتحان عسير . . يكون الحوار الودود مفتاح الموقف . . الواصل بالطرفين إلى مرفأ النجاة . . نجاة العلاقة الأخوية من الغرق فى طوفان الانفعالات الطائشة !

نماذج من تاريخنا :

دخل رجال معاوية - رضى اللّٰه عنه - أرضاً للزبير بن العوام - رضى اللّٰه عنه- فأفسدوا زرعها .

وعلى الفور : كتب الزبير إلى معاوية بما حدث . . ثم طالبه بمنع رجاله من مثل ما حدث . وإلا كان بينه وبينه شأن ؟! وعرض معاوية الأمر على ولده يزيد . فقال: ارسل إليه جيشاً يأتيك برأسه . . نظير جرأته عليك !! فما كان جواب أبيه إلا أن قال له : بئسما أشرت !! وما كان تصرفه مع الزبير إلا أن أرسل إليه كتاباً يقول فيه : ساءنا . . ما ساءك ! والدنيا هينة بجانب رضاك ! وقد وهبت لك المزرعة بما فيها من رجال . . فقبل الزبير الهدية ثم بعث إلى معاوية يشكره ! .

فانظر ماذا ترى ؟:

كان الزبير منطقياً مع نفسه التى نازعته تريد إرغامه على الانتقام ممن انتهك حماه. . فقرر أن يدافع عن كرامته . . ولكنه آثر الكلمة على السلاح . . على ما فى الكلمة من خشونة حين أنذر معاوية قائلاً :

{ وإلا كان بيننا وبينك شأن } على أن لهذه الخشونة ما يسوغها : فلم تكن خسارة الزبير مادية . . ولكنه إحساس الرجل الحر بالهوان . . حين يستباح حماه . . ومن ثم . . كان هذا الخطاب الموجز . . الشديد اللهجة فى نفس الوقت .

موقف معاوية :

لم يشأ الخليفة أن يأخذ قراره منفرداً قبل أن يستشير ولده الأثير : يزيد . والذى كان اقتراحه دامياً . . مكلفاً . . معرضاً هيبة الخلافة للخطر . . حين أشار على والده بأن يكلم الزبير بالسلاح . . والدم المستباح .

لكن الوالد الحكيم يقطع حبل الحوار مع ولده . . معلناً فساد رأيه على الملأ . . فالحماس المندفع لا يجدى معه الحوار الهادىء . . وإنما هو الجواب المسكت . . وتنحية شلال الانفعال . . قبل أن يخضب الجو بالدماء . . والأشلاء . . وذلك قول معاوية – رضى اللّه عنه –: بئسما أشرت وكأنما يقول : جئت أطلب معونتك . . وجئتنى بخذلانك !

تحويل مجرى الحوار :

وفى نفس اللحظة . . يفتح الخليفة ملف حوار مع أخيه الزبير مدركاً ما يلى :

أولاً : موقع الزبير- رضى اللَّه عنه - من دوحة النبوة .

ثانياً : ماضيه الحافل بجلائل الأعمال .

ثالثاً : ثم إنه صاحب حق .. وإن لصاحب الحق مقالاً .. وقبل أن نعاقب المظلوم فنلومه على توجعه .. يجب أن نلوم أنفسنا قبل ذلك .. لأننا نحن الذين بدأنا بالعدوان .

من أجل ذلك كان هذا الخطاب .. وإن شئت قلت : هذا الحوار الخاطف : يستعطف فيه معاوية الزبير- رضى اللَّه عنه - ولا يكتفى بالمقال .. لكنه .. وإحساساً منه بالمسئولية يهب له المزرعة بكل ما فيها .. ومن فيها .. ثم يتوج الموقف.. برضا نفس الزبير .. وتلتئم الجراح .. وتعود المياه إلي مجاريها ويتراجع الحماس المتدفق .. لأن المقام للحوار المفيد.. الرشيد .. بعيداً عن التهديد والوعيد.

أما بعد :

فقد كان معاوية - رضى اللَّه عنه - داعية .. وذلك يعنى أنه :

أولاً : عالم .

عالم .. يبحث فى الأمور عن الصفات المشتركة .. وصولاً إلى قانون يفسر به الواقع .. وليعينه على التصرف مع ألوان البشر بنجاح .

ويعنى ثانياً أنه : فنان ..

فنان : يزامل الرجل فى رحلة يغوص بها إلى أعماقه .. ليحتل منه مساحة من القلب .. هو أحق بها : ولم تكن قصاراه أن ينجح فى معركة كلامية .. وعلى الورق .. وإنما هى الكلمة الهادية التى تتجاوز الآذان .. لتستقر فى الأذهان .. ثم فى الوجدان .

سُنَّةُ الاختلاف

ينطلق المتحاربون من قاعدة أصلية . . انطلاقاً يحققون به هدف الحوار وهو : التسليم بالاختلاف كظاهرة بشرية . . تعنى عدد الآراء . . ثم التخلص من الرغبة فى تنحية كل من يصادم رغباتنا . . وإلا . . فمن استبد برأيه . . فلن يحصل على الحرية التى يرجوها . . لأن الجدير بالحرية هو من أعطى مثل هذه الحرية إلى الآخرين.

جلس الإمام الطبرى يلقى درسه . . كعادته . . وفوجئ التلاميذ بالشيخ الكبير يبدى رأياً مخالفاً لما عهدوه . . فى مسألة مهمة . .

فماذا فعلوا ؟

لقد رموه بمحابرهم . . رموه عن قوس [1] واحدة . وكانت الهجمة شرسة . . والنقد مدمراً . . إلى الحد الذى اضطر فيه الشيخ أن يفر من مجلسه . . مغلقاً عليه باب داره . . وكان من سوء حظه أن انضم إلى التلاميذ جماهير العامة الذين رموا داره بالحجارة . . حتى اختفت وراء جبل من هذه الرجوم . . ولم يخلصه منهم إلا الشرطة التى وافت . . فوضعت حدا لهذا العدوان . . من قبل أناس . . يجهلون أبسط قواعد الحوار . . إنهم ينفعلون . . ومن ثم لا يفكرون . . أو يتكلمون قبل أن يفكروا . . أو يشعروا . . فلم تعد لهم عقول . . ولا قلوب . . بل صارت أجسامهم مقابر لعقول جامدة . . وقلوب عليها أقفالها . . ومن ثم كانوا شطاراً فى الكلام . . فى مجال الخصام . . يريدونها معركة ساخنة . . ملتهبة . . بينما المحاور العالم الهادىء . . يحاول نقل القضية المطروحة . . إلى مائدة الحوار المستنير . . حيث تخرج الفكرة من العقل والقلب معاً . . ومن العمق . . إلى اللسان حكمة . . وإلى القلم سطوراً يصبح بها المداد الأسود طاقة من النور !

إنه الاستبداد بالرأى الذى يستهدف الاتهام . .ثم الإفحام . . إرضاء لأنفسهم. . وليس دفاعاً عن الحق . . وكذلك كان الملأ الذين يسارعون فى الضلال. . صادرين عن عقدة التميز :

---

(١) القوس : يذكر ويؤنث .

فالمكان .. هو ما يسكنون .. والزمان .. هو ما يعيشون .. وإنما يكون الرأى مقبولاً إذا تملق أهواءهم ..

لكن المؤمن بمسئولية الكلمة .. له شأن آخر :

{ إنه يقرأ .... ويستوعب.. ويمحص - كما قيل بحق - بل يخلو بنفسه :

ثم ينسق القول تنسيقا منطقيا . بحيث تتناصر الأدلة وتستعلن الشواهد . وتمضى المقدمات فى سهولة إلى النتائج . فإذا تم له ذلك بينه نفسه . شرع فى تستطير خلاصة ما اهتدى إليه فى أسلوب بعيد عن الفضول }[1].

القاعدة القرآنية :

وينطلق المحاور المؤمن من القاعدة القرآنية حتى يأمن الزلل : جاء رجل محرم إلى أبى بكر - رضى اللَّه عنه - يسأله عن حكم المحرم إذا قتل صيداً .. فسأل الصديق أبى بن كعب ... فقال له الدجل :

جئت أسألك وأنت الخليفة . فإذا أنت تسأل غيرك .. فقال أبو بكر - رضى اللَّه عنه -: أو ليس اللَّه تعالى يقول : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ {المائدة : ٩٥ } .

واجب الداعية :

ينبغى أن يكون قلب العالم واديا مقدسا .. يتسع لينشر رحمته على كل سائل مهما كانت نواياه . ومهما أوغل رأيه فى الضلال .. مؤيدا رأيه تارة بالآية الصادعة بالحق كما فعل الخليفة - رضى الله عنه - وأحيانا بالمنطق الهادى الذى يستوعب السائل المسترشد بل والمتعنت ..لقتنع .. أو يسكت من أول السطر فى مجلس واحد من علمائنا المحدثين سأل سائل : { إن الفقه الاسلامى على كثرة ما ألف فيه : ز يفى بحاجات العصر . لأن القرآن قد نزل والمسلمون أقرب إلى البداوة . فلم يأت كتاب الله بما يرسم الطريق الحضارى فى المعاملات المعاصرة } وكان من الممكن أن يهمل الشيخ ذلك القائل .. صادرا فى إهماله عن ثقته بتفاهة ما يقول السائل وأن فى

---

(١) مجلة الأزهر مايو - ١٩٩٩ .

تلاميذه من يقدر علـى رد الفرية على صاحبها . . لكن العالـم الجليل . . كما يقول الراوى : {اغتبط بما قيل .

وتوجه للمتحـدث باسماً ليعلن له أنه صاحب فضل كبـير ولم يكن يصلح لهذه البداية إلا الشيخ الوقور . . والذى كسب بها انـتباه القائل . . الذى أقبل على الشيخ بكل مداركه . . ولو أن الشيخ أعطى طرف الحديث لشـاب مثل السائل . . لثار غبار جدل ساخن . . يدور فى حلقة مفرغة . .

قال الشيخ كما يلخص الراوى :

{اندفع الأستـاذ يتحدث عن الأحكام الشـرعية : بين أنهـا ثابتة لا تتغـير بتغـير الزمان. وقد فصلها القرآن الكريم أتم تفصيل . . فلا مجال للاختلاف على أطولها . وإنما الاختـلاف فى فهم بعض النصوص . . وذلك من سـعة القول لا من ضيـقه . وكذلك أحكام العبادات : قد فصلها كتاب اللّه . وبينت سنة الرسول ﷺ . . بما لا يدع مجالاً للتردد فى مفهوم عبادة . أو إقامة شعيرة . أما الأحكام الخاصة بالمعاملات من بيع وتجارة ورهن ومضاربة وعقوبة وجنايات . . وكل ما يدور ول شئون الناس. . فلم يعرض لهـا القرآن بالتفـصيل . إنما اقتـصر على الأحكام الأساسـية . ثم وضع الضوابط العامـة . ليفصل العلماء أحكام المعامـلات فى عصورهـم بما يناسب . وفى ذلك سع لمسابرة التطورات الاقتصادية والشئون التجارية أ. هـ [١].

وبمثل هذا المنطق الحصيف . . تصير مجالسها لحوار ذات بهجة متعددة الألوان. . والطعوم. . وبه أيضاً يتحـقق الاعتصام . . ونستدبر الخـصام . . فى وقت لا تتحمل أوضاعنا هذا الخصام . . ويكفى خصومة الأعداء . . المتربصين بالدار وأهلها. .

إن ديننا . . باق إلي يوم القيامة . . وإذن . . فـعداوة الناس له قائمة . . ثم هو لكل البشر . . وإذن . . فأعداؤه كثيرون بـل أكثر . . { ولا تجد أكثرهم شاكرين} ثم هو دين العـقل المستنيـر . . ولذلك تحاربه الخرافـة . . وأجدر برجـاله أن يكونوا يدا واحدة . . على من سواهم لتسلم لهم دنياهم وأخراهم .

---

(١) مجلة الأزهر يونيو ١٩٩٩ .

أما بعد :

فإن من مهمة المجادل أن يقدم البـديل بعد أن يجهز على وجهة النظر الأخرى : إن بعض الناس ينـكرون المنكر . بل يحطمـونه البـديل . . ولـنا فى القـرآن الكريم شاهد: قال تعالى :

﴿ لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] لقـد نهى عن الأولى . . لكنه أمر بالثانية .

وفى السنة المطهرة :

جيء له ﷺ بتمر جيد. استنكـره، وقال : أكل تمر خيبر هكذا . قالوا: لا . ولكنا نشترى الصاع من هذا بصاعين . والصاعين بثلاثة . قال: لا تفعل . لكن بع التمر الردىء بالدراهم. ثم أتبع بالدراهم «جنباً» [والجنب هو: أغلى أنواع التمر] [1].

فقد نهى ﷺ عن شىء . ثم جاء بالبديل .

---

(١) أخرجه البخارى برقم ٢٢٠١ - كتاب البيوع . مسلم . كتاب المساقاة .

صلة المسلم بالعلماء والأمراء

فى تحديد صلة المسلم بعلمائه وأمرائه .. كان لسلفنا الصالح توجيهات راشدة.. تأخذ بيده إلى التى هى أقوم فى دنياه وفى أخراه .. وقد قالوا : للسلطان عليك :

أ- أن تخلص له النصيحة .

ب- وألا تنازعه سلطانه .

وللعالم عليك :

أ- احترام مجلسه .

ب- الإصغاء إليه .

جـ- استحضار عقلك حتى تستفيد منه .

وليس للجدل هنا ولا للخصومة مكان .. ولا مكانة .. من حيث كان سبباً فى التقاطع والتدابر .. الأمر الذى حدا بالفاقهين أن يحذروا من الخصومة لبرمتها : كتب ميمون بن مهران إلى صديق له يقول : { إياك والخصومة والجدال فى الدين : ولا تجادلن عالماً . ولا جاهلاً : أما العالم : فإنه يخزن عنك علمه . ولا يبالى بما صنعت . وأما الجاهل فإنه لا يطيعك } .

وقد كان لهذا التحذير ما يسوغه :

فقد اشتدت الخصومة .. خصومة الزملاء فى مجال الفقه إلى الحد الذى كان تابع مذهب ما لا يصلى خلف من لا يدين بمذهبه ! بل إن بعضهم وصل باللدد إلى منتهاه حين رفض أن يزوج ابنته ممن لا يدين بمذهبه .. مع أنهما فى الأصل مسلمان موحدان ؟ وفى التحذير من مجالة الجاهلين بالذات .. وقاية من خطر يبدد طاقة الأمة فيما لا يفيد . ونقصد بالجاهلين ما يعم الأمى .. والعارف المعاند : يقول الشاطبى فى الموافقات . نقلاً عن الإمام الغزالى : { أكثر الجهالة إنما رسخت فى قلوب العوام : بتعصب جماعة من جهال أهل الحق : أظهروا الحق : فى معرض التحدى . ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والإزدراء . وتعذر على العلماء المتلطفين محوها . مع ظهور فسادها } .

سُنَّةُ الاختلاف :

ولا يعنى ذلك رفض الجدال مطلقاً . . وإنما يعنى الإقـلاع عن اللجاجة . واللدد فى الخصـومة . مع ضـرورة أن يكون حواراً يسـتهدف الحق . . حـول قضـايا الأمة المصرية بروح العـالم النزيه الورع . . والذى ينازل خصـمه الشريـف من العلماء . . فتتلاقح العـقول . . وتتلاقى الآراء . . ليسفر الحوار فى الـنهاية عن حقائق . . لولا الحوار الهادف ما سعدنا بها . .

بل لقد بلغ بسلفنا الصالح أن قالوا بأهمية هذا النوع من الاختلاف . . سبيلاً إلى إسعـاد الأمة بعـدد من الآراء حول القـضيـة الواحدة . لتـتسع دوائر الاخـتيـار أمام المكلف: قيل لعمر بن عبد العزيز - رضى اللّه عنه -: لو جمعت الناس على شىء ؟ فقال : ما يسرنى أنهم لم يختلفوا ! . . ثم كتب إلى الأمصار يقول :

{ ليقض كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم } ! .

وهكذا كان عمـر بن عبد العزيز رحـمة مهداة من اللّه تعـالى إلى أمته . . حين رفض الاجتـماع - فى الأحكام - على رأى فـقيه واحـد . . فراراً بالأمـة من ضيق الأفق . . إلى سعة الإسلام .

وهو المعنى الذى ألمح إليه عون بن عبـد اللّه - رضى اللّه عنه - حين قال : { ما أحب أن أصحاب النبى ﷺ لم يختلفوا . . فإنهم لو اجتمعوا على شىء . . فتركه رجل . . ترك السنة . . ولو اخـتلفـوا . . فـأخذ رجـل بقول واحـد منهم . . أخـذ بالسنة}.

يختلفون .. لكنهم متعاونون :

وتعجبنى المقولة العادلة الفاضلة :

{ نتعاون فيما اتفقنا عليه .. ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه } وكذلك كان الصحابة - رضوان اللّه عليهم - كما قيل بحق : { منهم من يقرأ البسملة .. ومنهم من لا يقرؤها . ومنهم من يجهر بها .. ومنهم من يسر . ومنهم من لا يتوضأ من الرعاف [١] والقىء والحجامة ومنهم من يتوضأ . ومنهم من يتوضأ من أكل لحم الإبل أو ما مسته النار .. ومنهم من لا يرى فى ذلك بأساً .

ولم يمنع ذلك أحداً منهم من أن يصلى خلف الآخر : كما كان أبو حنيفة وأصحابه . والشافعى . يصلون خلف أئمة المدينة من المالكيين .. حتى ولو لم يلتزموا بقراءة البسملة .. لا سراً ولا جهراً } .

ومن أجمل ما يروى من مواقف الإمام أحمد قوله :

لا ينبغى للفقيه أن يحمل الناس على مذهب . ولا يشدد عليهم .

من شواهد السنة :

عندما كان العباسى - رضى اللّه عنه - أسيراً . أعطاه عبد اللّه بن أبى قميصه ، فلما مات عبد اللّه . طلب ابنه عبد اللّه قميص رسول اللّه ﷺ ليكفن أباه فيه . فأعطاه إياه .. وفاء .. ولما هم ﷺ بالصلاة عليه .. جبذه عمر - رضى اللّه عنه- من ثوبه.. حتى لا يصلى عليه .

فنزل قوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ {التوبة : ٨٤} .

أجل إن للمجاملة مساحة مع المخالفين فى الدين .. لكنها أبداً لن تكون على حساب العقيدة .

وتأمل كيف يختلف عمر مستقلاً بوجهة نظر تخالف وجهة القيادة ؟.. ويتنزل

(١) الرعاف : دم يخرج من الأنف .

الآية على الرسول ﷺ .. مُقِرَّةً ما ذهب إليه عمر - رضى اللَّه عنه - ويبلغ الرسول الآية الكريمة كما هى .. وبلا حساسية .. فهو دائر مع الحق حيث دار .. منطلقاً من القرآن الذى قال له : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء : ١٠٥] لتحكم بينهم بما أراك اللَّه .. لا بما رأيت أنت .

من أهداف المبطلين

ربما تبنى المغرضون يوماً فكرة خاطئة يريدون بها التشويش على الحق . ومن ثم يسخرون كل قواهم للترويج لها .. وغرضهم الخبيث هو : إما أن يرد المسلمون فريتهم .. وإما أن يسكتوا .. والمبطلون كاسبون فى الحالين : لأن المحقين إذا ردوا مفندين زعم أعدائهم . كان ذلك أدعى إلى نشر ما يريدون نشره من أباطيلهم .. وأما إذا سكت المحقون .. فإن ذلك يعنى أن يخلو الجو للأعداء كى ينفردوا بالجاهلين وأنصاف المتعلمين وأرباعهم .. ليزعزعوا عقائدهم فى غياب حراس الحقيقة .

من أجل ذلك كان لابد من الحكمة التى نفوت بها على الأعداء أغراضهم .. الحكمة التى لا يكفى فيها أن يكون ردك سليماً فى ذاته - على أهمية ذلك - وإنما باختيار الصيغة المناسبة.. والظرف المناسب أيضاً .. حتى تحرم الأعداء مما يرغبون.. بقدر ما تظل ساحة الدعوة مفتوحة أمام دعاة يكونون على مستواها .. فلا ينظرون شزراً .. ولا يقولون هجراً . { قبل أن تصير الجفوة .. فجوة } !

لم يشأ سبحانه وتعالى أن يخلق البشر نسخة مكررة .. ولكنه عزّ وجلّ خلقهم مختلفين فى : الثقافة . والبيئة . والمستوى العقلى . والمصلحة . والأمزجة .. فجاء هذا التنوع آية من آيات الله تعالى .. ثم كان نعمة منه سبحانه أثرت الحياة بعطاء سعدت فى ظلة الحياة .. ومن آثار هذه النعمة ما كان من خلاف بين الأمراء .. والعلماء .. وهو ما نحاول تجليته كلون من الفكر الإسلامى ترعرع فى دوحة ما جاء فى القرآن الكريم من توجيهات راشدة بهذه الأمثلة .

حوار العلماء ..

كان بين ابن سيرين { وهو أشهر من فسر الأحلام} ،والحسن البصرى جفوة فكان الحسن البصرى إذا جاءت سيرة ابن سيرين يقول : دعونا من ذكر الحاكة ! { وكان نفر من أهل ابن سيرين حائكاً { أى : خياطاً .

وحدث أن رأى الحسن البصرى فى منامه : كأنه عريان .. يضرب بالعود .. على مزبلة ؟! فقال لأحد أصحابه : أن يقص الرؤيا على ابن سيرين كأنها حدثت له

. ولكن ابن سيرين قال لصاحب الحسن : قل لمن رأى هذه الرؤيا : لا تسأل الحاكة عن مثل هذا !!

فاغتم الحسن البصرى : ثم ذهب مع الرجل إلى ابن سيرين . فتعاتبا .. وقال ابن سيرين بعد العتاب : لا تشغل قلبك : فالعرى .. عرى من الدنيا .. ليس عليك منها علقة . والمزبلة هى : الدنيا . وقد انكشفت لك أحوالها . أما ضربك بالعود .. فإنه الحكمة التى تتكلم بها . وينتفع بها الناس .

فسأله الحسن البصرى :

كيف عرفت أننى صاحب الرؤيا ؟!

فقال ابن سيرين :

فكرت عند سماعها . فلم أر أحداً أصلح لها منك !!

شيمة العلماء :

وهكذا العلماء دائماً :

إنهم يخشون اللَّه تعالى .. فهو أحق من يخشى . ومن مآثر خشية اللَّه : أنها تردهم إلى الحق بعد أن نبهوا إليه . أما الجاهل الأحمق : فإنه متبع هواه .. ومن ثم فهو ملتزم بالمراء .. والذى يسول له أن يكون ساخناً .. معمقاً للشقاق لا راجعاً عنه .. إنه طفل يهجم على الجمرة الكاوية .. لأنه لا يدرك طبيعتها .. فإن رحت تذكره بأخطارها .. عاداك ... بل رماك بما فيه .. وقليلون فى دنيا الناس من يحب النقد البناء .. أما أكثرهم فإنهم : يعشقون المديح والإطراء .. وهكذا .. كل الذين يستحقون النصيحة .. لا يحبونها !!

ولكن حوار العلماء له طعم آخر .. فمن شمائلهم :

أ- البحث عن مجالات الاتفاق بينهم .. وبين مخالفيهم فى الرأى .. بدل الإسراع فى دمغهم بالخطأ .

ب- وإنهم يوازنون بين تقدير ذواتهم . ورعاية مشاعر الآخرين .. دون خلل .

جـ- وحتى إذا هزموا فى معركة الحوار .. فإن أحدهم يكون تلك الزهرة .. التى تسقط حين تسقط .. ولكنها تترك للناس شذاها !

ولقد اختلف ابن سيرين ، والحسن البصرى هنا .. وتلك طبيعة البشر .. لكن الحسن لم يفجر فى خصومته ، واكتفى بالتعريض .. وذلك قوله : { دعونا من ذكر الحاكة } .

وكان من مقدور ابن سيرين أن يكيل للحسن الصاع صاعين .. لكنه ما يزال - مع زلة لسانه - صديقه الذى يشد يديه به ولا يزايله وإن جفا ..

وكان من بركة هذا الصبر على الأذى .. أن هيأ اللّه الأسباب .. فكانت هذه الرؤيا التى عادت بالمودة إلى الصحاب .

وقبل أن تصير الجفوة .. فجوة . يردمها الحسن بالاعتذار .. وابن سيرين بالعفو ..

والذى كان خصاماً   صار ودا ووئاماً

إن فى ذلك لعبرة لكل مجادل عن الحق مرتفع بأسلوبه إلى مستوى هذا الحق . فلقد انتصر ابن سيرين . وكسب القضية .. لكنه يعزز انتصاره بقبول عذر المعتذر ولم يحاسبه على هفوة تاب منها .. بل أعانه فانهضه من كبوته ليسيرا معاً على الطريق .

بين الأمراء :

وقد كان المتوقع أن يكون حوار الأمراء ساخناً .. لأن الدنيا المؤثرة فى أيديهم.. بل فى قلوبهم .. وما يترتب على ذلك من التهور فى الدفاع . وفى الهجوم .. لكن ساحات الحكم شهدت حكاماً عادلين .. رجاعين إلى الحق وهذا أنموذج يحتذى: هرب أحد المحبوسين فى عهد زياد ..

وقرر الحاكم أن يقبض على أخيه .. فحبسه .. حتى يعود السجين الهارب .. وكان هذا الحوار بين الأخ المظلوم ..وبين زياد :

قال الأخ للوالى :

لو جئتك بكتاب من أمير المؤمنين لتطلق سراحى . . أتفعل ؟

قال الوالى :

نعم . .

فقال الأخ :

فأنا آتيك بكتاب من عند العزيز الحكيم .

وبشهادة موسى، وإبراهيم عليهما السلام . .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ . أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم : ٣٦-٤٠].

ولم يكد الحاكم يسمع الآيات الكريمة حتى قال : أطلقوا سراحه . . فقد لقنه اللّه حجته .

ولم يكن أجمل من المظلوم فى حجته إلا الحاكم فى حكمته التى استجابت لتوجيهات القرآن الذى كان حاضراً فى وعيه . . ولم تأخذه العزة بالإثم . . وكان رجوعه إلى الحق بعد ما تبين آية توفيقه وأنه جدير بالمنصب فعلاً .

من آداب الحوار

عندما يأخذ المحاور موقف الدفاع عن وجهة نظره . . فعليه أن يلتزم بما يلى :

١- إطراح الهوى :

{ فالعقل والهوى متعـاديان : فالواجب على المرء أن يكون لرأيه معيناً . . ولهواه مثبطاً . فإذا اشتبه عليه أمران . . اجتنب أقربهما من هواه . . لأن فى مجانبته الهوى إصلاح السرائر . وبالعقل تصلح الضمائر } أ.هـ .

٢- فإذا تكلم أحد الطرفين فواجب الآخر ما يلى :

{ أن يجـمـع لحديث زمـيله باللّه . ويصـغى إلى حديثـه . ويكتم عليه سـره . ويبسط له عذره . . } .

٣- أما واجب المحدث فهو :

{ إذا أنكر عين السامع - إذا ظن أنه شارد - فعليه أن يستفهمه عن معنى حديثه- حـتى يواصل على بينة من أمـره - فـإن وجده قـد أخلص له الاسـتـمـاع . . أتم له الحديث . . وإن كان لاهيـاً عنه . . حرمه حسن الإقبـال عليه . . ونفع المؤانسة له . وعرفه بسوء الاستماع والتقصير فى حق المحدث . . } أ.هـ .

وهكذا يكون العتاب من حق المتـحدث . . الذى يقطع حديثه أحيانـاً . . ليتأكد من حسن استماع الطرف الآخر .

٤- على كل واحـد من المجـادلـين أن يدرك الغـرض من حـواره . والذى يتلخص فيما يلى :

أ- تقرير الحقيقة .

ب- القدرة على توضيحها .

جـ- ثم إلزام الخصم بها .

ولا يتم ذلك كله إلا إذا عـاش المتـحدث قـضيـته . . ثم اخـتـار لها أسلوبهـا

المناسب. . والذى يقف مـن ورائه قلب شـاعر حـسـاس . . حـتى يسـتطيع أن ينقل مشاعره إلى غيره ليكون معه فى فكرته . . ولا يكفى رَصّ الألفاظ الرنانة . . التى لا تسـتمـد حـرارتها من القلوب . . ومـن ثم لا ينفعل بهـا . . يقـول الأدباء فى هذا المجال:

{ إن الفـرق بين من يقـرأ ألفاظاً مـن غيـر انفـعال . . ومن يقـرأ بحس كـامل وانفعـال. . أشبـه بمن ينظر إلى الزهور المتفـتحة من وراء الزجـاج . . فلا يرى غـير صورتهـا وألوانها . . ومن ينظر إليـها بين يديه . . فـيحس بوجـودها عن قرب . . ويتمتع بأوصافها وأريجها . . تنتقل من حواسه إلى مداركه العميقة .

إن القارىء على الأسلوب الأول : قـارئ ألفاظ : يردد كلمـات . . وأصواتاً . وجملاً . محـدودة فى مبانيها ومعـانيها أما من يقرأ بانفعـال . . فإنه يكسب المعانى صدى من روحه . فتمزج بمشاعره امتـزاجاً غير محدود . وتعيش فى قلبه وعقله . . وتأخذ صوراً شتى مطربة . أو محزنة . على نحو ما تكون من حيث الغرض والأداء} ذلك بأن الأمر على ما يقول الأدباء :

{ لكل صوت صـدى : فالكلمة - أيا كانت مـسموعة أو مكتـوبة - هى صدى لصاحـبهـا . فإذا تعلمت النطق . . فـتعلم حـسن الاستمـاع . بل أنت أبلغ وأنت تسمع. . منك حين تقـول . وقبل أن تقول كلمـة . . فكر فيها . فلربما تقـول كلمة لست تعنيها . .

٥- تجنب النفاق عن طريق المديح على الملأ . ثم الهـجوم على الطرف الآخر من الخلف . .

يقول الشاعر :

قل لـلذى لـست أدرى مـن تلـونه : أنا صح أم على غـش تناجـينى؟
إنى لأكـثـر مما سـمتنى عـجـبـاً يد تشح . . وأخرى مـنك تأسونى
تغـتـابنى عـند أقـوام . . وتمدحنى فى آخـرين . .وكل عنك يـأتينى
هذان شـيـئان قـد نافـيت بينهـمـا فاكفف لسـانك عن شتمى وتزيينى

إن المحاور هنا يريد أن يقول :

إن الكلام فى الضوء الساطع .. غيره فى الظلام الدامس .. فليكن المحاور فارساً يحارب فى الضوء ..وعلى أرض مكشوفة .. على ما يقول الشاعر :

فإما أن تكون أخى بحق فأعرف منك غثى من ثمينى
وإلا فاطرحنى واتخذنى عدواً أتقيك وتتقينى

من ملامح التعصب :

هناك محاور لا يسمعك إلا فى حالة واحدة فقط :

إذا حدثته عن نفسه .. وارتفعت به فوق قدره ! وتلك واحدة من خصائص الملأ :

الملأ .. الذين يريدون أن يختزلوا الناس ليكونوا : هم وحدهم الناس ..كما يريدون اختزال المكان ليكون فقط قصورهم التى يسكنون وبها يدلون !

كما وأنهم يحترمون القانون .. القانون إذا كانت بنوده تمكن لنفوذهم ..وتدافع عن شهواتهم .. فإذا راح الناصح الأمين يكشف عنهم غطاء التعصب .. ناصبوه العداء .. وهكذا .. يرفض النصيحة من هو أحوج إليها ؟! وهكذا أيضاً يضيفون إلى الجهل .. العناد .. والجحود .. والمغالطة ..وتذكرنا هذه الطبائع المعقدة المتبجحة بذلك الفتى الذى قتل أباه .. وقتل أمه .. ثم ألح على القاضى طالباً الرأفة.. لأنه صار يتيماً ؟! وعلى رغم أن الحق لائح واضح .. لكنهم يدورون حوله.. إنه البقرة التى يختلف الجهلاء .. والعقلاء عليها : الجاهل يشدها من ذيلها.. أو من قرنها.. لكن العاقل .. هو الذى يفوز فى النهاية بلبنها .. العاقل.. الذى يحاور عاقلاً :

فهناك التبصر .. وهناك الأناة .. وهم العاصمان من الزلل : تكد الأفهام .. وتثمر الأقلام .. من كل زوج بهيج . وإذ يتبجح الباطل : فلا يسلم بالهزيمة .. فإن صاحب الحق ماض فى طريقه : يسمى القط .. قطاً .. ولا يسميه أسداً ..

مهما حـاول الانتفاخ ! وقد يرمى الباطل بالورقة الأخيـرة ساخراً . . ولكنها سخرية الفأر الذى يسخر منك . . لا لقوة ذاتية فيه . . ولكن . . لأنه وجد جحراً يواريه !!

أرأيت إلى الفلاح : إنه لا يتـرك النهر يفلت من بين يديه ليصب فى البـحر . . لكنه يفتح فـتحا ليـسقى أرضه . . وكم فـى أعماق المدعـوين من جواهر . . ونحن مطالبون بإخراجـها . . باستخراجهـا . . بالمحاولة . . ولا يكفى أن ننتظر حتى تجىء إلينا ؟ إن الخشب يطفو . . أمـام جرام الذهب . . فيغوص وهكذا الداعـية : عليه أن يغوص . . فى أعماق المدعو . . ثم فى أعمـاق بحور المعانى . . ليأتى من الجديد بما يريد . . ثم يضعه : فى مكانه المناسب وفى وقته المناسب .

قمة الإنصاف :

ليست هناك عداوة شخصة بين الـداعية والمدعو . . وإنما المحور الذى يدور حوله هو الحق . . عليـه يصالح . . ويخـاصم . . وهو عنده مقـبول . . وإن كان المـقربة ملحدا: عن أبى هريرة - رضى اللّه عنه - عن النبى ﷺ قال :

أصدق كلمة قالها شاعر : كلمة لبيد

ألا كل شىء ما خلا اللّه باطل

قالوا :

{ فى هذا الحديث : إشارة إلى أن الحق يقبل حتى لو كـان القائل كافرا . فالحق مقبول من كل أحد جاء به حتى لو كان كافرا . وقال بالحق . . قُبِلَ منه . . وأما من قال بالباطل فقوله مردود وإن كان مسلما . يعنى : العبرة بالقول . . لا بالقائل }.

بلاغة السكوت !

يقولـون : خير لنا أن نـصمت وندرك . . من أن نندفع ونخطئ ! إننا لا نتـعلم فقط . . عند ما نتكلم . . ولكن عندما نصمت !.

وقد قيل :

{ خيـر لك أن تصمت فيـشك البعض فى فهمـك لما يقال . . من أن تتكلم . .

فيتأكد الكل من عدم فهمك لما يطرح} إن الأمر على ما يقول أبو الدرداء - رضى اللّه عنه -: «لا خير فى الحياة إلا لأحد رجلين : منصت واع . . أو متكلم عالم» .

وما شيء أشد على الشيطان من عالم : معه حلم : إن تكلم تكلم بعلم . . وإن سكت . . سكت بحلم. يقول الشيطان : إن سكوته أشد عَلَيَّ من كلامه !!

من ثمرات الصمت:

يقول أبو حاتم :

«الواجب على العاقل : ألا يغالب الناس على كلامهم . ولا يعترض عليهم فيه: لأن الكلام وإن كان فى وقته خطوة جليلة . . فإن الصمت فى وقته مرتبة عالية }.

ولقد كان سلفنا الصالح على هذا المستوى العالى . . فحققوا لأنفسهم من ثمرات الصمت ما أشار إليه الأحنف بن قيس فى قوله : { الصمت أمان من تحريف اللفظ . . وعصمة من زيغ المنطق . . وسلامة من فضول الكلام . . وهيبة لصاحبه . . ولكنه الصمت حيث يكون هو العلاج . . ولكن إذا كان الكلام للمقال . . فلابد منه .

قال أبو حاتم :

{الواجب على العاقل : أن يلزم الصمت إلا أن يلزمه التكلم فما أكثر من ندم إذا نطق . . وأقل من يندم إذا سكت . وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء من ابتلى بلسان مطلق }.

وما أجمل الصمت دواء لعلة . . ثم ما أجمل الكلمة تجيء بعده . . صادعة بالحق . . رادعة لنوازع الإنسان:

كتب عبد اللّه بن زياد إلى المنصور رسالة بليغة يسأله فيها حاجة {معونة مالية } فطال سكوت المنصور . فبعث إليه « زياد» يقول : ما لأمير المؤمنين لم يرد على ؟

فأجاب المنصور:

قرأت كتابك . . فسحرتنى بلاغته . وقوة أسلوبه . وروعة بيانه . ورأيت أن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في رجل أبطراه . . لذلك . أشفقت عليك . . ورأيت أن تكتفى بالبلاغة !!}.

وإذا كانت الثمرة تخرج ناضجة من تفاعل الأرض والماء .. فقد جاءت الحكمة هنا .. تتويجا لهذا الصمت الذى لم يكن عياً بقدر ما كان جرعة من الدواء تطيب به نفس الإنسان .

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل أن ينصف أذنيه من فيه : ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفم واحد .. ليسمع أكثر مما يقول . لأنه إذا قال .. ربما ندم وإن لم يقل .. لم يندم .. إنه هو على رد مالم يقل أقدر منه على رد ما قال . والكلمة إذا تكلم بها .. ملكته .. وإن لم يتكلم بها .. ملكها . والعجب ممن يتكلم بالكلمة : إن هى رفعت ربما ضرته .. وإن لم ترفع لم تضره .. كيف لا يصمت؟ ورب كلمة سلبت نعمة » !!.

من واجب المحاور المسلم

إن العاقل - كما قيل بحق : لا يبتدئ الكلام .. إلا أن يسأل .. ولا يقول إلا لمن يقبل .. ولا يجيب إذا شوتم .. ولا يجازى إذا أسمع .. لأن الابتداء بالصمت وإن كان حسنا .. فإن السكوت عند القبيح أحسن منه] .

وصدق القائل :

استر العى ما استطعت بصمت	إن فى الصمت راحة للصموت
واجعل الصمت إن عييت جوابا	رب قول جوابه فى السكوت

فى مجال التطبيق

وقد حفلت مجالس المعلم برجال عرفوا ما للصمت من فائدة فآثروه على الكلام: رووا أن شابا كان يحضر مجلس عمر بن الخطاب- رضى اللّٰه عنه -. ويحسن الاستماع .. ثم ينصرف من قبل أن يتكلم . ففطن له عمر . فقال له :

إنك تحضر مجلسنا . وتحسن الاستماع . ثم تنصرف من قبل أن تتكلم . فقال الشاب : إنى أحضر فأتوقى ..وأتنقى .. وأصمت .. فأسلم].

إنه شاب فى مفتتح عمره .. وقد تكون رغبته فى الكلام غلابة .. وقد تكون له

قدرة عليه . . لكنه يتقن أنه [لا يجترئ علـى الكلام الكثير لا فائق أو مائق فائق . . يحسن القول . . أو مـائق . . سفـيه أحـمق . . لا يقدر العـواقب . ولا يفكر فى المصائر . . وقد نجح فى لزوم الصـمت . . «فما ابتلى أحد في دينه ببـلاء أضر عليه من طلاقة اللسان . .»

ولقد كـانوا يتركون مـا أبيح لهم من الكلام . حذر الوقـوع فى الملام : وعندما أخبر الربيع بن خيثم بنعى الحسين . . قل الناس : اليوم يتكلم مقاله . . ولكنه قال :

«اللهم فاطر السـموات والأرض عالم الغـيب والشهادة . أنت تحكم بين عـبادك فيما كانو فيه يختلفون».

وبعد :

فقد قال مؤرق العجلى : «أمرنا فى طلبه منذ عشر سنين . . وليت بتارك طلبه : قيل : وما هو يا أبا المعتمر ؟ قال : الصمت عما لا يعنينى.

تأملات
فى سورة الأنعام

يقول الله تعالى :

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ . قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام :١٤٨ - ١٥٠].

تمهيــد :

فى غياب القـيم . ينفرط العقد النظيم .. ثم يكون الـعريان شيخ اللابس !.. وتحرم الزمـة من روادها .. حين يرسو اللؤلؤ هناك فى الأعمـاق .. ثم لا ترى فوق الماء إلا الطحالب .

والآيات الكريمة تطالعنا بـنموذج من الجـاحدين الذين يريدون إفـراغ الحيـاة من مضمونها . يريدون تنحية الصـفوة المؤمنة .. ليخلو لهم الجو .. وليتهم يملكون من القيم ما يقودون به الحـياة ..وإنهم هو الأدعاء .. والتطاول .. الإدعاء .. بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

والسؤال الآن :

كيف نتعامل مع هذا الصنف من الناس ؟ وهل المقصود : هدايتهم . أم المقصود هدمهم ؟

المقصود طبعا: هدايتهم إلى الحق .. بالكلمة الهادية .. والحوار الهادف .. ثم يكون السلاح آخـر الدواء .. إذا صار هو الدواء .. ولا دواء سواه : وتبـقى الكلمة الطيبة.. والفكرة السديدة وسيلة فى مواجهته للباطل :

ذلك بأن السيف قـاهر معـاقب . أما الفكر فمـثقف ملطف .. السـيف يغزو

الممالك . . داحر كتائب وجحافل . . ويشعل الحروب . . جاعلا بين الإنسان والإنسان جدران حقد كثيفة .

أما الفكر :

فلسيفه خفة الهواء . ولطف النسيم . وهول الصواعق . وبذلك السيف - الذى يدعى «القلم» - أو اللسان - يشهر الفكر حربه المجيدة .

حرب الروح . . على المادة .

حرب الحكمة . . على الزهو .

حرب الحصافة . . على الغرور.

حرب العدل . . على الطغيان.

حرب الكرامة . . على التطفل .

حرب الكرامة والواجب . . على التهجم والخمول.

بالقلم :

الذى هو أداة البيان . . وبالقلم وحده . . يبرز كل شعب آدابه : أى عصير روحه . وهو عصير جزء من روح الإنسانية وفكرها . . فيلفتنا إلى أنفسنا . وما يكمن فيها من قوة . . إذ يصلنا بفكر الإنسان وقلبها .] أ.هـ.

وفى سورة الأنعام معارك فكرية من هذا النوع . . يواجه المؤمنون فيها أناسا ضاقت صدورهم بالحق . . فاتسعت للباطل . إنها : أهواء متصارعه . . وأحزاب متقارعة وكل يدعى زن الحق معه . . ثم يصور الحق . بالصورة التى يرسمها مزاجه. وإذن . . فما أثقل مهمة الحق . . الذى عليه فى مواجهة هذا الغثاء . . أن يعرض نفسه بموضوعية . . وبإنصاف . . فإذا فرضت المعركة . . فإن السيف ينوب عن القلم. . وعن اللسان . . ولا بأس أن يخضب المؤمن الأرض حينئذ بدمائه الزكية . . لتنبت زهوراً من المثل العليا. . وتختفى الهيئة « الجميلة» لتفسح الطريق أمام الهيئة الجليلة . . والتى بها يقود الإسلام الحياة . . الإسلام الذى لا يعمل مؤثرا فى مجراها إلا إذا عمل به . . بدفاع عن الحق كاسح إزاء هجوم علي الحق كسيح !

القضية وأبعادها

فى مستهل سورة «الأنعام» تفصيل لعقائد الإسلام فى : الإلهيات . والنبوة . والبعث. ثم دحض ما يرد عليها من أباطيل المشركين وأضاليلهم . فى عقائدهم . وما انبثق عنها من أعمال فاسدة . ومن هذه الأباطيل ما تحكيه الآيات الكريمة التى نحن بصدد التعليق عليها . من أعذار واهية . . وكيف أزال الحق سبحانه هذه الأعذار بالتمكين والإقدار ؟ . . والآية الكريمة (حكاية لفن آخر من أباطيلهم والإخبار به قبل وقوعه حسبما أخبر تعالى) { بل إن ما أخبرت به الآية الكريمة أكبر شبههم التى توارثوها }.

{تشابهت قلوبهم }

دعوى القوم :

فى تبسيط دعوى القوم نقول : كل ما حصل منا . . فهو بمشيئته . . وهو الشرك. ،ما ترتب عليه . وإذ شاء منا ذلك . . فبكيف يمكننا تركه ؟ وإذا كنا عاجزين عن تركه . . فكيف يأمرنا بتركه ؟ وهل فى وسعنا إتيان أمر على خلاف مشيئته تعالى ؟

إن إتياننا للشرك :

أ- دليل على مشيئته تعالى لنا .

ب- بل على رضاه .

جـ- بل قد أمر به .

ويعنى ذلك :

أن ما فعلوه حق . . ولو شاء اللَّه تعالى عدم شركهم . . ما أشركوا . ولا حرموا . . ولو لم يكن حقا . . لأرسل اللَّه تعالى رسلاً إلي آبائهم الذين ماتوا على الشرك . . وعلي تحريم ما لم يحرمه اللَّه سبحانه . حتى ينهاهم الرسل عن الشرك . . وعن تحريم مالم يحرمه اللَّه . وتحليل ما لم يحله .

تقنين الشبهة

وخلاصة الشبهة .. والرد عليها .

هكذا:

المقدمة الأولى : إن ما نرتكبه من الشرك والتحريم .. قد تعلقت به مشيئة اللّٰه تعالى وإرادته .

والمقدمة الثانية : وكل ما تعلقت به مشيئته سبحانه.. فهو مشروع بل ومرضى عنده سبحانه .

والنتيجة : أن ما نرتكبه من الشرك والتحريم مرضى عنده سبحانه وتعالى .

كلمة حق .. أريد بها باطل .

والمقدمة الأولى صحيحة فى ذاتها .. فهى مما يؤيده العقل والشرع معا:

فكل كائن .. فهو بمشيئته تعالي . ولا يمكن أن يقع فى مله خلاف ما يشاء عزَّ وجلَّ . لكنها كلمة حق يريدون بها باطلا هو : أن إرادتهم مسلوبة .. ثم رد دعوة الأنبياء عليهم السلام . وإنكار البعث . ورفع التكليف .

منشأ التكذيب :

وإذن .. فمنشأ التكذيب عند القوم هو :

المقدمة الثانية وهى : أننا أشركنا .. وشِرْكنا داخل فى مشيئته تعالى .. فهو مشروع .. بل مرضى عنه .. بل مأمور به !

رد شبهة القوم :

يقول الألوسى : [منشأ التكذيب هو : المقدمة الثانية : لماذا ؟

لأن الرسل عليهم السلام يدعونهم إلى التوحيد ويقولون لهم : إن اللّٰه تعالى لا يرضى لعباده الكفر دينا . ولا يأمر بالفحشاء . فيكون قولهم : إن ما نرتكبه مشروع ومرضى عنده تعالى .. يكون تكذيبا لهذا القول أى .. قول الرسل ..]

وإذن فهم الكذابــون . . والرسل هم الصادقون الذيــن يقررون نقيض مـا يعتــقد هؤلاء الجاهلون . وهو : أنه ليس كل ما تــعلقت به المشيئة والإرادة مشروعً ومــرضياً عنده تعالى .

وأن وقوع ما شــاءه اللّه تعالى لا ينافى صدق دعــوى البعثة والتكليف . لأنــهما لإظهار المحجة . وإبلاغ الحجة . وليهلك من هلك عن بينة ويحى من حى عن بينة. ألا { إن المحتــجين على المعاصى بالقــضاء والقدر . . يناقــضون أنفســهم : فإنهم لا يمكنهم أن يقبلوا ممن أشار إليهم اعتذار بالقضاء والقدر . . فاحتجاجه به مرفوض . . فيا عجبــاً : كيف يحتجون بالقضاء والقدر على معــاصى اللّه ومساخطه ولا يرضون من أحد أن يحتج به فى مقابلة مســاخطهم ؟!! مع أنهم موقنون بأن الاحتجاج به لن ينهض مسوغاً لهم . . وإنما هم يريدون به فقط دفع الحق }[1] .

لما لزمــتهم الحــجــة . وتيقنوا بطــلان ما يزعــمون . . فــراحــوا يهرفــون بما لا يعرفون. . لما طوقتهم الأدلة القاطعة عذر المحجوج . .

من تصحيح المفاهيم

قال رجل :

ما شاء اللّه وأراد . وقضى . وقدر. فقال له أبو عــبد اللّه : جعفر بن محمد : أخطأت ! إنما هو : مــا أراد اللّه . وشاء . وقــدر . وقضى . إن اللّه تعــالى إذ أراد شيئاً . . شاءه . فإذا شاءه . . قدره . فإذا قدره . . قضاه . فإذا قضاه . . أمضاه .

ومن سننه ﷺ : أنه كــان إذا مر بحائط مــائل . . أسرع المشى . فــقيل له : يارسول اللّه : أتفر من قضاء اللّه ؟

فقال ﷺ :

أفر من قضائه . . إلى قدره . أى : أفر من الشىء قبل أن يقع فيكون قضاء . . إلى ما قــدر ولم يفصل . فــإن اللّه تعالى يزيله عنى ويغــيره . . ويمحــوه . وهو عزَّ وجلَّ قادر على ذلك }.

(١) تيسير الكريم الرحمن.

النهى عن الشرك

والنهى عن الشرك نهى عن رأس الفساد كـله . . ويكفى المشرك هواناً أنه : يعبد أصناما . . هى ذاهلة عنه . . لا تشعر به .

وما أتعس الذين يعبدون مؤلها لا يشعر بوجودهم . . وهو فى نفس الوقت أحط منهم فى سلم الموجودات.

ألا إن من فقد التوحيد . . فلن ينفعه شىء . . ولو بذل الأقران الأكفاء . وحك بيافوخه قبة السماء ! وصدق علماؤنا .

خطأ المنهج

لقـد أخطـأ المشـركـون فى المنهج : فـهم مكلفـون بأمـور . . هى فى دائرة اختيارهم . . وهم متمكنون منها . . قـادرون عليها : فعلاً أو تركا . ولكنهم يحيلون القضية علـى مشيئة غيبـية لم يطلعهم اللّٰه عليها . . ولم يكلفـهم اللّٰه تعالى بها . . يقول صاحب الظلال : { إن طبيعة أية حقيقة هى التى تحدد منهج تناولها . وأسلوب التعبير عنها كذلك : الحقيقة المادية يمكن تناولها بتجارب المعمل والحقيقة الرياضية . . يمكن تناولها بفروض الذهن.

وها أنتم أولاء . . ترددون نفس النغمة . . فأنتم سائرون إلى نفس المصير .

ويبقى أن يكشـف السياق للمـؤمنين بؤرة هذا الانحراف . . وأسـباب هذا العناء والمتمثلة فى :

١- اتباعهم الهوى .

٢- تكذيبهم بآيات اللّٰه .

٣- إنكار الآخرة . .

وإذا عـرف السـبب . بطل العـجب . ويبقى فـقط أن يواصل المحـقـوق رحلة الإيمان . . متجاوزين شغب هؤلاء الصغار . والحقيقة التى وراء هذا المدى . . لابد أن تتناول بمنهج آخـر : منهج التذوق الفـعلى لهذه الحـقيـقة . فى مـجالها الفـعلى . ومحاولة التعبير عنها بغير أسلوب القضايا الذهنية والمادية }.

ولكن القوم يهرفون بما لا يعرفون.. وذلك شأن الماديين الذين لا يخافون إلا بأعينهم .. ومن ثم تهزهم الآية هزا منبهة إياهم بما ينتظرهم فى نهاية الطريق من عذاب مثل عذاب آبائهم فى الضلال من قبل وكأنما يقول لهم : ما تقولونه الآن : حلقة من سلسلة التكذيب المنتهى بالمكذبين إلى العذاب .

رد شبهة المنكرين:

وهذا صنف من الناس لا يجدى معه الحوار . لأنهم حلقة فى سلسلة التكذيب. تكذيب الرسل . والذى استمر حتى أذاقهم اللَّه تعالى بأسه . هذا البأس الذى كان دليلاً واقعياً قويلا على أنهم مبطلون .. وإلا .. فلو لم يكونوا مبطلين .. فلم يعذبهم اللَّه تعالى .. إنهم ذلك الصنف من الناس الذى يلغى عقله .. وفيواجه الأحداث عشوائياً .. بلا هدى .. ولا بصيرة .. إنهم ينظرون إلى الأحداث كأنها وقعت .مفاجأة . بلا أسباب .. ولا دروس مستفادة .. ومن ثم يباشرون الحوار بلا موضوعية ولا تسلسل منطقى .وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك فى مواطن كثيرة:

يقول تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٠] .

ويقول عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨].

ويلاحظ أن القرآن الكريم يعقب على الادعاء بما يحبطه: ففى آيةالزخرف يقول ربنا سبحانه مفندا زعمهم : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف : ٢١] . أبدا .. لم يحدث أن آتاهم اللَّه كتابا .. ولكنهم يقلدون آباء السوء : ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٢].

وإنهم ليرددون بذلك مقولة من سبقوهم إلى التكذيب: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] .

وفي آية سورة الأعراف يقول تعالى رداً لزعمهم : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ . قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨ - ٢٩].

حجم التكذيب :

ولاحظ من دقة التعبير فى الآية التى نحن بصدد التعليق عليها أنه تعالى يقول : ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ . (فلم يذكر المكذب به : تنبيها على أنهم جاءوا بالتكذيب المطلق). فلم يكن تكذيبهم مواقعة حال. لم يكن بيضة الديك.. وإنما الكذب يتمشى فى دمائهم .وطينتهم معجونة به .فنطقهم كذب. وعملهم فاسد..

إلزام الخصم :

أ- ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا.﴾ هل عندكم علم ؟ .. بل أدنى ما يقال له علم .. لننظر فيه . بالطبع .. ليس عندكم أدنى ما يسمى علما .. وإذ يخرس الخطاب ألسنتهم فلا ينطقون .. فإن الحق تعالي يتكفل بالرد عليهم ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُم إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ ما تتبعون إلا الظن الذى تهيمون به فى أوديته حائرين أنتم فقط واهمون .. كهذا الخارص الذى يحرز ما علي النخلة من ثمر .. ولا يدرى الحقيقة . وإذن .. فلا حجة لكم .. وإنما هى للَّه تعالى بخاصة: [قل فللَّه الحجة البالغة] .

وفى معنى الظن قالوا : « هو ما ليس من مدركات الحس .ولا ضروريات العقل. وقد يكون منه : ما يؤخذ من نظريات يطمئن لها القلب . ويرجحها العقل . وهم لم يكونوا على هذا النوع منه .. بل كانوا يتبعون أدنى دركات الظن وأضعفها.. لا يعدونها .. وهى درجة الخرص] [1] وهو أشد أنواع الكذب.

الحجة البالغة « وإذ تنفى الآيات عنهم أدنى ما يقال له علم .. ثم تحصر ما هم عليه من الدين فى أدنى مراتب الظن « مع أن أعلاها لا يغنى عن الحق من شىء » .

---

(١) المنار- ١٥٦.

أثبت لذاته العلية فى مقابلة ذلك: الحجة العليا. التى لا تعلوها حجة .. فقال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ والمعنى كما يقول صاحب المنار : { قل يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين الذين بنوا قواعد دينهم على أساس الخرص الذى هو أضعف الظن: ... إن لم يكن عندكم علم ما . فى أمر دينكم فللَّه وحده أعلى درجات لعلم . بما بعثنى به من محجة دينه القويم . وصراطه المستقيم } .

ما هى الحجة البالغة؟ ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾.

{حجته البالغة : بينته أنه الواحد . وإرساله الرسل والأنبياء . فبين التوحيد بالنظر فى المخلوقات . وأيد الرسل بالمعجزات ولزم أمره كل مكلف . فأما علمه وإرادته وكلامه : فغيب لا يطلع عليه العبد . إلا من ارتضى من رسول . ويكفى فى التكليف : أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به .. لأمكنه } القرطبى / ٢٥٦٤.

معنى بلاغة الحجة :

وتعنى بلاغة الحجة أمرين:

أولاً : أنها فى ذاتها بالغة أقصى درجات القوة والهيمنة.

وثانياً : ثم بلغ بها صاحبها إثبات صحة دعواه .. ولاحظ ما يشى به معناها : فهى حجة .. من الحج .. والحج هو : القصد .. وكأنها من قوتها .. وجلال صاحبها مصوغة من معدن الحق .. فهى عاملة .. بل صميم عملها أنها : تحج .. تقصد إثبات الحكم .. تطلبه فى مظانه .. ولك غاية مرادها لا تلوى فى انطلاقها إليه على شىء !!.

ومع هذا : { لا يكاد يهتدى بها إلا المستعد للهداية وهو المحب للحق . لحريص عليه .. الذى يستمع القول فيبلغ أحسنه .دون من أطفأ باتباع الهوى نور فطرته . أو استخدم عقله لكبريائه وشهوته }.

يقول الرازى :

{إن اللَّه تعالى أعطاكم : عقولا كاملة . وأفهاما وافية . وآذاناً سامعة . وعيونا

باصرة . وأقدركم على الخير والشر . وأزال الأعذار والموانع بالكلية عنكم : فإن شئتم ذهبتم إلى عمل الخيرات .وإن شئتم إلى عمل المعاصى والمنكرات . وهذه القدرة معلومة الثبوت بالضرورة . وزوال الموانع والعوائق معلوم الثبوت أيضاً بالضرورة . وإذا كان الأمر كذلك . كان ادعاؤكم أنكم عاجزون عن الإيمان والطاعة. . دعوى باطلة. . فثبت بما ذكرنا : أنه ليس لكم على الله حجة بالغة بل للَّه عليكم الحجة البالغة] [التى بلغت أعلى درجات الحق : قوة . ومتانة . وبيانا . ووضوحاً ورصانة بسبب أن اللَّه شامل العلم . كامل القدرة . كما أقررتم بذلك حين قلتم : ﴿لو شَاءَ اللَّهُ مَا أشرَكْنَا﴾ وإن كنتم قلتموه على سبيل الإلزام والعناد لا لأجل الدين والاعتقاد] «البقاعى» . بل للَّه عليكم الحجة البالغة].

ثم يواصل الرازى حملته الرامية إلى إبطال مزاعم القوم . . التى منها قولهم : [لو كانت أفعالنا واقعة على خلاف مشيئة اللَّه تعالى . . لكنا قد غلبنا اللَّه - سبحانه- وقهرناه. .]

والجواب :

[بأن العجز والضعف إنما يلزم . . إذ لم أكن قادراً على حملهم على الإيمان . والطاعة على سبيل القهر والإلجاء . .ولكنى قادر على ذلك وهو المراد من قوله تعالى ﴿ فَلَو شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجمَعِينَ ﴾ إلا أنى لا أحملكم على الإيمان والطاعة على سبيل القهر . لأن يبطل حكمة التكليف].

فالرسل والأنبياء عليهم السلام [قد أقاموا الحجج العقلية والعلمية على التوحيد وغيره . وأيدهم اللَّه تعالى بالآيات البينات . ولكن المكذبين لم ينظروا فى هذه الآيات نظر الأنصاف لاستبانة الحق . بل أعرضوا عنها . وأصروا على حججهم وعنادهم . وحتى ذاقوا بأسه تعالى . . ولو كانت مشيئة اللَّه تعالى لما كانوا عليه من الشرك والمعاصى . . إجبارا مخرجاً لذلك عن كونه من أعمالهم . . لما عاقبهم عليه.

وهو قد قال : إنه أخذهم بذنوبهم وأهلكهم بظلمهم وكفرهم . ولو كانت مشيئته لذلك متضمنة لرضاه عن فاعله . وأمره إياه - خلافا لما قال الرسل - لما عاقبهم عليه. تصديقاً للرسل.

فقـوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ { بيـان للبـرهان العقـلى الواقع . الدال على تصديق الرسل فى دعواهم . وبطلان شبهات المشركين المكذبين لهم } [١].

إفحام الخصم :

إن مشـيئـة اللّٰه تعالى مطلقـة . . وأنتم معـترفون بذلـك . . وإذن . . فلو شاء سبحانه وتعالى هدايتكم أنتم ومخالفوكم لهداكم أجمعين . لكن الواقع خلاف ذلك :

فقد شاء سبحـانه هداية بعض . . وضلال آخرين . فوقع ذلك على الوجه الذى شاءه تعالى .

ويلزم على ذلك ما يلى :

١- أن يكون الفريقان . . كـلاهما محقين . . لأن اللّٰه تعالى شـاء ما ذهب إليه كل منهما . . وهذا باطل لأنه يعنى أن الشىء . . يكون حقا وباطلاً فى وقت واحد.

٢- ثم {إن تعليقكم دينكم بمشيئة اللّٰه تعـالى يقتضى أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشـيئتـه سبحانه وتـعالى . . ويقتضـى ذلك أن توالوهم . ولا تعادوهم . أو تخالفوهم . لأن المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وما هم عليه }.

والنتـيجـة ليـست فى صـالحهم . ولكنـها فى صـالح الحق الذى يمثله الرسـول ﷺ . . لقد ظهرت الدلائل . . واندحر المجـادل . . حيث شهد له ﷺ { من لا ترد شهادته سبحانه . وزكاه من لا تقبل إلا تزكيته بهذا الكتاب الذى كان عجزكم عن لإتيان بشىء من مثله شاهدا بأنه قوله فهل لكم أنتم من شاهد يقبل } ؟؟ البقاعى .

---

(١) المنار (١٥٥- ١٥٦) .

البرهان العملى

يقول سبحانه : ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ .

وهذا هو التحدى الأكبر . . إذ يطالبون بإحضار شهود عيان . . أبصروا بالعين المجردة تحريم اللَّه سبحانه لما حرموه . . ولا شهداء هناك . . ولا يحزنون . . وإنما يتحداهم الحق تعالى ليظهر عجزهم . . وعلي الملأ . . بل وعلي مدار التاريخ . . ويظهر معنى التحدى والتعجيز حين تطالبهم الآية الكريمة . . لا بإحضار أى شاهد ولكن بإحضار شهودهم . . الذين يتصدرون مجالس العلم . . وشهدائهم . . هم بالذات . . الذين يثقون بهم . . ويأخذون عنهم . . ولا يغشون فى نصحهم . . يقول صاحب المنار : [كأنه يقول: إذا لم تكونوا أنتم على علم تقيمون الحجة على صحته . . وكان عندكم شهداء تلقيتم عنهم ذلك . . وهم يقدرون على مالا تقدرون عليه من الشهادة . . فأحضروهم لنا . . ليدلوا بما عندهم من الحجة . التى قلدتموهم لأجله] ولاحظ كيف يحيط الحق بالقوم المعاندين حين يطالبهم بشهداء : شهداء . . عاينوا بالفعل ما يزعمون صحته . . لا مجرد علماء يجيدون صناعة المراء الذى لا نصل معه إلي قرار . . وإنه ليسد بذلك بابا من الافتراء يجيد فتحه الفارغون الراغبون فى الجدل . . لذات الجدل . .

واجب الداعية :

وعلى فرض أنهم أحضروا هؤلاء الشهداء . . فأنكروا . . وادعوا . . فواجبك أيها الرسول يفرض عليك ما يلى :

١- أن ترفض هذه الشهادة ابتداء . .

٢- ثم لا تسكت حتى لا يظنوا سكوتك عجزا . . وتسليما بفريتهم .

٣- وأعلن على الملأ بطلان ما يزعمون .

٤- راجعاً بهذا البطلان إلى أسبابه :

أ- فالقوم . . أسارى هواهم الذى يملى لهم .

ب- وقد زين لهم الهوى إنكار الآخرة . .

جـ- ثم هم مع ذلك يشركون . . متخذين للّه سبحانه عدلا : يعادله ويشاركه فى إدارة دفة الكون.

ويترتب على ذلك كله :

خذلان المشهود لهم . . حيث ظهر بطلان ما يزعمون على لسان من هم على ملتهم من علمائهم الذين بهم يقتدون ويهتدون.

أجل :

إن القوم واقعون فى أسر الهوى . . لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . . فلا تقع فى شراكهم . . مبينا لهم أن التحريم والتحليل إلى الخالق سبحانه وتعالى . . وليس إليكم . . فتعالوا أتل ما حرك ربكم عليكم . .

والحقيقة التى تفرض نفسها أنهم اتخذوا هذا الموقف العدائى العشوائى بسبب أنهم مستكبرون . . غافلون . . كافرون بالآخرة . . وذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف { ١٤٦-١٤٧} .

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

إنهم متكبرون { يرون أنهم أفضل الخلق . وأن لهم من الحق ماليس لغيرهم . وهذه الصفة - أعنى التكبر - لا تكون إلا للّه تعالى : وهى صفة ذم فى العباد . . وصفة مدح فى اللّه جلَّ جلاله { ومن عتوهم . . أنهم استمروا على التكذيب. بل واستمرءوه مع وفرة الدلائل المانعة منه .

وبعد : فقد جيء بسارق حكم بقطع يده فقال لعمر - رضى اللّه عنه - : لا تقطعنى يا أمير المؤمنين . . فقد سرقت بقدر اللّه فقال له عمر : ونحن أيضاً . .

نقطعك بقدر اللَّه !! فانظر كيف تسرى علة المشـركين بالعدوى إلى أمتنا؟ . . وما أكثر الذين يتحايلون على قـدر اللَّه . . مع أن الإيمان بالقدر فى دين اللَّه هو هذه العناصر مجتمعة :

أ- الإيمان بأن علم اللَّه تعالى شامل كامل .

ب- وأنه تعالى كتب كل شىء .

جـ- وشاء سبحانه كل شىء .

د- وهو خالق كل شىء .

تلوين الأدلة

وهكذا يبدو حرص القـرآن الكريم على هداية القوم . فكلما أعـرضوا . . كلما عرض عليهم دليلاً جديدا .

إن الاختلاف فى ذاته ليس عيبا . . وإنما العيب أن يكون خلاف العداوة الرافضة للحق . . والمفروض أن تكون خصومة الرأى . . الراغبة فى هذا الحق . .

لقد عجز القوم . . وليتهم قد اعترفوا . . ولكن . ضعفت العزيمة . . فجمحت الغريزة . . فكان مصيرهم هذا الذى خطوه بأيديهم .

الحجة القاطعة :

وإذا قال القرآن الكريم : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. ﴾ فقد كان بإمكانه أن يسكتوا على الأقل ليكون دلـيلهم من حـيث لم يقـولوا . . ولكن الحق أنهم شـهـدوا على أنفسـهم . . وكانوا من حيث لا يحـتسبون جندا مـن جنود الحق . . من حيث إنهم قالوا فعلا . . كـما جاء فى سورة النحل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل :٣٥] .

إنه الإعجاز . . الذى ألقم المعاندين حجرا فلا يستطيعون معه الكلام .

توظيف خاطئ لمواهب الفطرة

لو علم الإنسان حقا أن العظمة للّه تعالي وحده.. ما تردد فى قوله معروف .. ولا نكص أمام عمل صالح . وقد كان المشركون أذكياء. .حين اختاروا من الأمور ما قد يشتبه على العامة .. فينطلى عليهم .. أى : أنهم شطار فى صياغة لا ينطق بشيء. مغلق .. لا ينفتح على شيء .. بل إنه ميت .. فاقد الإحساس .. وإذن. . فما أثقل مهمة الداعى .. عندما ينادى حيا .. لا حياة له ؟! إن الداعية لا يكلم نفسه .. ولا يؤلف لنفسه .. بل لينقل شعوره إلى غيره .. وتجربته كذلك ..

فأين ذلك المتلقى ؟!

ولكن الداعية - أمام هذه الأرض الموات - مكلف ألا يقطع خيط الأمل .. وأن يواصل المسير .. فلعل وعسى .. وهذا ما تكلفت به الآيات بعد ذلك .. حين تواصل خطاب القوم .. مبينة السلطة التى بيدها التحريم والتحليل . وأين الحرام؟. . وأين الحلال؟. .

سلطة التشريع :

يقول تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام ١٥١- ١٥٣] .

بعد أن أبطل القرآن دعواهم . حين علقوا ضلالهم المبين على شماعة القدر .. يبين سبحانه أن السلطة التشريعية التى تملك حق التحريم ليست إليكم .. وإنما الذى يملك هذا الحق هو «ربكم» .

فهو الذى يربى أجسامكم بماء الحياء . ثم يربى أرواحكم بما شرعه لكم .

أسس البناء الاجتماعى :

ويبدأ السياق ببيان البنية التحتيــة للأمة التى تريد لنفسها البقاء . والمتمثلة فى هذه القواعد الأساسية :

المحافظة على حق اللَّه تعالى . . بالتوحيد ونبذ الشرك . وعلي حق الوالدين . . بالإحسان إليهما . . وعلى حق الأولاد فى الحيــاة الحرة الكريمة . . ثم صيانة المجتمع من الانحــراف . . والقتل . أى : من الــقتل البطىء . . والقــتل المبــاشر . . يقــول صاحب الظلال :

[ويكثر فى السياق القرآنى مجىء النهى عن هذه المنكرات الثلاثة متابعة : وهى : الشرك . والزنا - وهو الــفواحش - وقتل النفس : ذلك بأنهــا كلها جــرائم قتل فى الحقيقة :

الجريمة الأولى : جريمة قتل الفطرة.

والثانية : جريمة قتل الجماعة.

والثالثة : جريمة قتل النفس المفردة.

إن الفطرة التى لا تعيش علي التوحيد . . فطرة ميتــة . والجماعة التى تشيع فيها الفاحشة . . جماعة ميتة منتهية حتماً إلى الدمار] الظلال ج ٣/ ١٢٣١ .

سلم الأولويات :

ويبرز من المنهج الاسلامى هنا مراعاة ســلم الأولويات . . حتى لا يشغل الداعية نفسه بالنوافــل قبل تأصيل الفرائض : فقــد بدأ سبحانه وتعــالى من المحرمات بما هو مفســد للعقل والفطرة معا . . وهو الشرك . وكــان لهذا البدء ما يسوفه : فــلا حياة لأمة إلا بعقيدة مهيمنة على ظاهر الحياة . . وباطنها . .

الإحسان إلى الوالدين :

وما زال الإحسان إلى الوالدين فى مقدمة القيم العظيمة فالآية الكريمة تدعو إلى الإحسان بالوالدين . . وهى أول قيمة تنبثق عن عقيدة التوحيد . . والتى يدور حولها

الجدل . ويكفى الأمـر بالإحسان إلى الوالدين أنه ذكر عـقب النهى عن الشرك ليأخذ وضعه بين القيم الإسلامية الأصيلة . ولاحظ أنه لم يقل سبحانه : وإلي الوالدين . . فأحسنوا مثلا . . لكنه عبر بالباء : . . بالوالدين . . لأن الباء للإلصاق . . والإلصاق يعنى المبـاشرة . . بمعنى : أن يكون والداك . . معك . . وفـى نفس الدار . .وحول نفس المائدة. إنه الاختلاط المؤنس . . الودود. . ولا يكفى أن ترسل إليهما راتبهما. . وهمـا هناك فى دار المسنين !؟ ومن تمام المعـنى أن نقول : إن حـق الوالدين يلى فى الأهمية حق اللّٰه تعالى :

فالوالدان كما قيل بحق : { قرن تعالى بين توحـيده والإحسان إليهما : لأن اللّٰه تعالى يربى بالنعم . والشرائع . والوالدان : يربيان بالتنشئة والتأديب والتهذيب :

فحقوق الوالدين من جنس حقوقه تعالى . وقد أكد اللّٰه تعالى حقهما :فالأجيال مـختلفـة المزاج . . والنظر . والحكم عـلى الأشيـاء . . مما يغـرى الأولاد بالظلم . وليعلم الجيل الجديد . أن قيادة الآباء أجدى . لـقد أعطى الوالدان رحيقهما لك . . ثم جف عـودهما وعادا فـى مثل ضعـفك الأول . . فاخـفض لهمـا جناح الذل من الرحمة } .

ألا وإنه الأمر بالإحسان . . دون النهى عن الإساءة التى لا يمكن أن تتصور بحال ومن ثم . . لم يذكرها السياق .

حق الولد فى الحياة :

وإذ يوصى الحق ،تعالى بالإحـسان إلى الوالدين فإنه يحتفـظ للأولاد بحقهم فى الحياة بتحريم قتلهم خوفا من الفقر . . فاللّٰه تعالى هو المتكفل بالرزق . . رزق الآباء والأبناء على سواء.

قتل الأولاد
والوفر النسبية

يقول تعالى : ﴿وَلاَ تَقتُلُوا أَولاَدَكُم مِّن إِملاَقٍ نَّحنُ نَرزُقُكُم وَإِيَّاهُم﴾ [الأنعام: ١٥١].

تمهيد فى معنى الإملاق

لم يقل تعالى : « من فقر » وإنما قال : من إملاق . فماهو معنى الإملاق ؟:

جاء فى لسان العرب «مادة ملق ».

الملق : الود . واللطف الشديد.

وقيل : شدة لطف الود .

قال الشاعر :

ثلاثة أحباب : فحب علاقة

وحب تملّاق، وحب هو القتل!

وفى الحديث : « ليس من خلق المسلم الملق » وهو : الزيادة فى التودد.

والإملاق : الافتقار . . وفى حديث فاطمة بنت قيس : [أما معاوية : فرجل أملق من المال . أى : فقر منه . قد نفد ماله . . وأملق ما معه إملاقا : إذا أخرجه من يده ولم يحبسه . . والفقر تابع لذلك].

ويعنى ذلك: دقة اللفظ القرآنى فى التعبير عن وضع الآباء وحينئذ: فلم تكن المشكلة أنهم فقراء معدمون. . وإنما كانوا أغنياء مبذرين . . فأملقوا. . أى: فافتقروا.

سبب قتل الأولاد :

وقد كانوا يقتلون أولادهم لأسباب هى :

١- خوف العار.

٢- خوف الفقر . . الواقع.

٣- ثم خوف الفقر . . المتوقع.

وكل ذلك دليل عدم توكلهم على اللّه تعالى . فجاءت الآية الكريمة تحاورهم لتستقيم بها أوضاعهم الاجتماعية . بعد إصلاح أحوالهم العقدية.

رأى الدكتور جلال :

وقد كان للدكتور محمد سعاد جلال لمحاته الذكية تعليقاً على الآية الكريمة . . ثم انضافت إليها نظرات المحدثين من بعده . . وملخص ذلك كله ما يلى : إنها إذن: الوفرة النسبية . . كما اعترف بذلك فلاسفة الاقتصاد الاشتراكيون . وليست هى الندرة النسبية كما ادعاها الرأسماليون . . الراغبون فى إثارة الصراع بين القوى . . عراكاً على حظوظ الدنيا .

يقول الباحثون المسلمون :

فى الصحراء الغربية . . وتحت رمالها أنهار جارية من المياه . وفى الشرق : فى سينا : ٥ مليون فدان صالحة للزراعة . بينما يدب فوقها شباب عاطلون . . وهم مدعون باسم الإسلام إلي إصلاح هذا « الموات» والموات هو : ما فيه خميرة الحياة وليس هو الموت الذى يعنى العدم والخواء ! إن حاجات الإنسان لا تنتهى كما قيل . . لكن الرزق حاضر . . ولكننا لم ندب على الأرض لنصل إليه . وهو بعض ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود :٦] .

ولاحظ فى نسق الآية الكريمة التى تؤكد الوفرة المطلقة.

١- التعبير بأسلوب القصد.

٢- والتعبير « بمن » مما يؤكد ضمان رزق كل دابة مهما كان موقعها أو حجمها .

٣- ثم تنكير « دابة» .

٤- ثم هو رزقها المضاف إليها .

٥- ومن الذى يضمنه ؟ اللّه : القادر على ذلك .

[إن البشرية تعيش اليوم بنصف . نتاجها من الثروة . والنصف الآخر ذاهب إلى التسلح المعد لإهلاك الإنسان نفسه !

أو معطل بلا استصلاح .. لانشغال الأمم القوية القادرة على ذلك . باستحداث ما يقتل الإنسان .. بدل الاشتغال بما يحييه . ألا إن ثمن حاملة طائرات واحدة قد ينقذ أمة من التخلف.

قتل الأبناء : قديما وحديثا :

الا [إن بعض الآباء يقتلون اليوم أبناءهم .. لا يقتلونهم بالسكين . أو بالرصاص . وإنما بالإسراف فى المخدرات . مع أن الدخل لا يفى بالضرورات ويترتب على ذلك :

١- الضيق .

٢- السخط على الحياة.

٣- التلفت من ضوابط الأخلاق.

٤- العقد النفسية.

٥- والأمراض الجسدية] د. محمد سعاد جلال .

ولعمرى إنه القتل حقا!

مغزى الآية الكريمة :

١- مهما كثر الناس .. فرزقهم موجود .

٢- بل إنهم يصلون إلى مرتبة الرفاهية لو أنهم :

أ- انتصروا على الطمع .

ب- والبخل .

جـ- ثم حققت الأمة التوازن الاقتصادى.

د- ثم كانت عدالة التوزيع حقيقة واقعية.

هـ- وأن يحمى قويهم ضعيفهم . لا أن يسحقه [1].

---

(١) دكتور محمد سعاد جلال.

حفظ مال اليتيم :

والوصية بحفظ مـال اليتيم . . حلقة فى سلسلة رعاية ضعفـاء الأمة بعامة . فى مجتمع كأنه قرية واحدة يتقاسم أهلها المودة. والكفالة والتعاون على البر والتقوى .

ومع أن الإيفـاء فى الكيل والوزن أمـر عسـير تحـقـقـه لكن ينبـغى تحرى العـدل ابتداء. . وما كان غير مقصود فإن النية الطيبة تجبره .

[إن شيـوع الظلم يمنع من خـروج رءوس الأموال من جـحورها . فـيقل البـيع والشراء . . وبذلك تتعطل مصالح الأمة].

أسلحة النصر

يقول الباحثون:

[لابد لكل أمة من مبادئ :

١- الدين .

٢- الوطنية .

٣- الكرامة.

وهذه المبادئ لا تحرك الجماعة إلا برصيد من :

١- طاقة عصبية.

٢- وطاقة وجدانية.

٣-وحماس متوقد . . مشتغل بتمجيد هذه المثل دائما.

ولكن الفواحش . . تحطم هذه الأسلحة بل وتفرغ النصر من مضمونه . . لأنها:

أ- تمتص هذه الطاقات.

ب- وتطفئ شعلة الحـماس . . شدة الانغماس فى لذاذات الدنـيا . . مما يجعل هذه القيم : قيم الدين . . والوطنية. والكرامـة خيالات لا تستحق بذل النفس والمال فى سبيلها]

من ثمرات العقيدة

ثم تجيء الآية الكريمة بعد ذلك :

﴿وَلاَ تَقرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِى هِيَ أَحسنُ .. الآية .. ﴾

تجيء لتفصل منهج التعامل المنبثق من العقيدة - والمؤسس على ما سبق من الأصول الثابتة . . والمتمثلة فى :

حفظ اليتيم ذاتاً ومالاً.

إيفاء الكيل والميزان.

العدل فى القول . . وفى أصعب الظروف . ثم الوفاء بعهد اللّٰه تعالى . .

من مبادئ التربية :

وفى سياق الآيات القرآنية نلاحظ أن اللّٰه تعالى يقول في جانب القتل :

ولا تقتلوا . . مباشرة

وفيما يتعلق بالفواحش- وأقبحها الزنا - ينهى تعالى عن القربان . وكذلك فى مال اليتيم حيث يقول تعالى : ﴿ وَلاَ تَقرَبُوا الفَوَاحِش .. وَلاَ تَقرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ ﴾ .

ذلك بأن من وراء جريمة القتل رادع الشرع وهو القصاص . ومن شأن تصوره أن يكف نوازع العدوان . . فى قلب الإنسان . . لكن اليتيم لما كان ضعيفا . . فقد يغرى الولى بأكل ماله . . فكان النهى عن القربان فرارا بالوصى بعيدا. حتى يأمن العثار . . ثم إن إغراء الجنس قد يغلب الإرادة فلا تتخذ قراراها المناسب . . فكان النهى عن الاقتراب حينا . . والأمر بالاجتناب حينا آخر . . ونستأنس هنا بما ذكره ابن الجوزى- رحمه اللّٰه- قال : [ما رأيت فتنة أعظم من مقاربة الفتنة! وقل أن يقاربها إلا من يقع فيها . ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . قال بعض المعتبرين : تمكنت مرة من لذة : ظاهرها التحريم . وتحتمل الإباحة . لتردد الأمر فيها فجاهدت نفسى . . وامتنعت عنها . فقالت نفسى :

أنت ما تقر على هذه اللذة . ولذلك تركتها عجزا! :

قاربها . . فإذا تمكنت من تركـها مع القرب منها . . كنت تاركا لها حـقيقة . . ففعلت . . وتركت .

ثم عاودت مرة أخرى . . فأرتنى نفسى أن الفعل جائز . وإن كان الأمر يحتمل. فلما وافقتها . ترك ذلك ظلمة فى قلبى لخوفى أن يكون الأمر محرماً .

فرأيت أنها أحيـانا : تقوى على بالتأويل . وأحيانا أقوى عليـها بالامتناع . فإذا تساهلت مـعها . . فـسوف يؤثر ذلك على القلب فلما لـم آمن مكرها . قررت قطع أطماعها . . فقلت لها : قدرى يا نفس أن هذا الأمر مباح قطعا. . ولا شبهة فيه . . ولكن، والله الذى لا إله إلا هو . . لن أعود إليه . فانقطع طمـعها باليمين والمعاهدة وهذا أبلغ دواء وجدته فى امتناعها : فأجود الأشياء:

قطع أسبـاب الفتن . وترك التسـاهل فيـما يجـوز . . إذا كان مؤديـا إلى ما لا يجوز. . { وقل من يسلم عند المقاربة . لأنه كتقديم نار إلى حلفا.

ثم . . لو ميز العـاقل بين قضاء وطره لحظة . . وانقضاء العمـر بالمرة على قضاء ذلك الوطر . . لما قـرب منه . وإن أعطى الدنيـا . غيـر أن سكرة الهوى تحـول بين الفكر وذلك . والطريق الأعظم فى الحـذر هو : ألا يتعـرض لسبب فـتنة . بل ولا يقاربه . فمن فهم هذا . وبالغ فى الاحتراز. كان إلى السلامة أقرب.

وأهم ما ينبغى الاحتراز منه :

النظرة . . التى هى سهم من سهام إبليس . وصدق القائل:

والمرؤ مـــا دام ذا عين يقـلبـــهـــا	فى أعين الغيد . . موقوف على الخطر
يسـر مـقلته . . مـا ضـر مـهجـتـه	لا مـرحـبـا بسـرور عـاد بـالضـرر

من بلاغة الآياتِ الكريمة :

يقول الإسكافى :[1]

(١) دورة التنزيل وغرة التزويل ١٣٧ .

[للسائل أن يسأل فيقول : ما الذى اقتضى فى الأولى : يعقلون . وهى الآية ١٥١وفى التالية : تذكرون . وفى الثالثة : تتقون . ؟

والجواب أن يقال :

[أقدم الله تعالى الوصية بالأشرف الأعظم . وهو : الإيمان بالله بدل الشرك . وفيه أداء حق أكبر النعم ثم الإحسان إلي الوالدين . . ونعمتهما على الولد أكبر النعم . . بعد نعمة الله تعالى . . فحقهما يتلو حقه سبحانه .

ثم الإحسان إلى الأولاد بتربيتهم . وترك ما كانت عليه العرب فى جاهليتها من وأد البنات . للفقر والإملاق . ثم أن لا يقربوا ما لعله أن يكون سبب ولد لا يصح نسبه . وهذا فى النهى عن سبب الأحداث . . كالأول فى النهى عن سبب الإهلاك. ثم أن يحقنوا الدماء . ولا يسفكوها . . إلا بحقها . وهو أن يقتلوها للقصاص . . فهذه خمسة تتعلق بأكبر الحقوق . وأوكد الأصول .

والشرك : اعتقاد مذهب باطل . . بهوى . وترك الإحسان إلى الوالدين يكون: إما لمحبة مال لا يسمح به لهما . أو اتباع هوى يدعو إلى مخالفتهما .

ووأد البنات لخوف الفقر والعار . . والزنا ما يقبح جداً من المعاصى . . تحمل عليه الشهوة . وقتل النفس بغير حق . . يدعو إليه شفاء غيظ النفس الأمارة بالسوء. وكل ذلك قبيح فى العقول . محتاج فى ذَمِّ النفس عنها إلي زاجر من عقل يدفع الهوى . فلهذا قال : « لعلكم تعقلون » أى : تستعملون العقل الذى يحبس نفوسكم عن قبيح الإرادات . وفواحش الهوات] .

ثم واصل « الإسكافى بيانه بما ملخصه : أنه بعد هذه الخمسة . . تجيء خمسة أخرى تتعلق بالمال لا بالنفوس . وقد ختمت بقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ .

فهو يذكرهم بأحوالهم هم . والتي تفرض عليهم تصور اليتيم . . والموزون له . . إذا كان هو ولده . . فهولا يرضى بظلمه . . ويرفض أن يعامل بغير العدل . . فى الفعل والقول . . وإذن . . فليذكروا هذا جيدا . . ويفرض عليهم التذكار أن يعاملوا الآخرين بمثل ما يحبون أن يعاملوا به .

ثم ختم الآية : ١٥٣ بقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ : فقد فصل لكم ما حرم عليكم . . وما يجوزلكم فسيروا على سواء الصراط غير ملتفتين يمنه أو يسرة . . وقاية لأنفسكم من الانحراف . . لعلكم بهذا المسلك السديد « تتقون» عذاب اللَّه .

من التصوير إلى التصوير :

وهكذا . . وباللفظة الموحية . . يصور القرآن خلجات النفوس . . ليتم تصور المطلوب . . والإسراع فى تنفيذه . . أى : أن بلاغة التصوير أسلوب من أساليب الدعوة إلى اللَّه تعالى . . [إنه يعبر عن المعنى الذهنى والحالة النفسية . . ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها . فيمنحها الحياة الشاخصة . والحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهنى : هيئة أو حركة . وإذا الحالة النفسية : لوحة أو مشهد . وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى . وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . . وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى . أو مثل يضرب . . ويتخيل أنه منظر يعرض . . وحادث يقع أ.هـ.

من تصورات الذين لا يعقلون :

هناك نفوس - كما يقرر المجربون:

مريضة بالسخط على كل شيء أو محكومة بالهوى . . في جهازها العصبى . . يمنعها كل ذلك من رؤية الحق . . ولا يهتدون لحكمة اللَّه تعالى في أحكامه . . ولذلك ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمُ تَعقِلُونَ﴾ .

أى : وضحتها لكم . . لتعقلوها . . لا لترفضوها !

إن القرآن . . مع جحود المعاندين لا يدعو لى تصنيع النفوس . . ولا إلي تصفية الحساب . . ولكنه يدعو إلى الموضوعية . لا إلى الموضوعية . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧].

ولقد تذكر من تذكر . وأعرض من أعرض . ولكل درجات مما عملوا . وإذا منح الإسلام الإنسان حرية التعبير . . فواجب الإنسان أن يحسن التدبير . . ولقد جادلوا . . وهذا حقهم . وبلا دليل . . وذلك إفكهم .

{ نقد كتاب { أسماء الله وصفاته : رؤية إسلامية مسيحية}

منهج المؤلف :

يذكر المؤلف «الاسم» ثم «الصفة» شارحاً معناهما فى اللغة . مستعينا بآراء علمائنا . ثم يكتب اللغة . ثم يثنى بما جاء فى التوراة والإنجيل . عن معنى هذا الاسم. وهذه الصفة .

وذلك فى إيجاز شديد . لا يكلفه إلا مجرد النقل .

يهدف من وراء ذلك إلى عقد مصالحة بين الإسلام وبين غيره من الأديان . من حيث كان مفهوم الأسماء والصفات واحدا فى كل الأديان.

ومما قال فى هذا الشأن :

١-{ إن الرسول لم يقل للناس : إن رسالته جديدة فى أصلها . ولم يدع أن الدين الذى بعث به هو دين خاص له لم ينزل على واحد قبله . بل قرر أنه دين الله. الذى بعث به كل الرسل }.

٢- وقد تورط المؤلف فيما تورط فيه غيرنا . . مما يناقض عقيدتنا وذلك قوله . . وبارك اليوم السابع وقدسه . لأنه استراح فيه } .

٣- ثم يذكر المؤلف أننا مأمورون بدراسة التوراة والإنجيل حتى لا يقال : إنا كنا عن دراستهما غافلين . مشيراً بهذا إلى الآية الكريمة : ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ {الأنعام : ١٥٦} .

٤- بل إنه يقف موقف الدفاع عن التوراة والإنجيل قائلاً: {إن من يطلع على العهد القديم يجد أن كتبه وأسفاره تنطق كلها بأن الله واحد أزلى قادر . وإذا كانت فيه استعارات ومجازات . تبدو فى ظاهرها غامضة . فإن الأفهام الدقيقه تنفذ إليها . وتقف على أسرارها }.

حوار الأديان
وليس مصالحة الأديان

تمهيـد :

لا بأس أن تحاول حضارة ما نشر مبادئها . . فهذا حقها . ولكن المهم هو : كيف تمكن لهذه المحاولة؟

وبأية وسيلة تدعو إليها ؟

وإلى أى حد تعترف هذه الحضارة : بحق الحضارات الأخرى فى نشر مبادئها ؟

إذا كانت الوسيلة هنا حضارية . . وكان حق الآخرين ثابتا . . وإذا تم ذلك كله فى جو من الاحترام المتبادل . . فلا بأس من التلاقى على كلمة سواء . .

لا بأس . . ولا يأس من تحقق الفائدة من وراء هذا التلاقى . . عن طريق الحوار الهادئ . الهادف .

وفى آى القرآن الكريم ما يعزز ذلك .

يقول تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

إن الإسلام هنا هو صاحب المبادرة إلى الحوار . . ولكنه الحوار المنطلق من أساسيات وثوابت لا يمكن التفريط فيها :

ب- ألا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه سبحانه؛ فإن تولوا . . فلا أقل من أن ينصفونا من أنفسهم . . شاهدين بأننا مسلمون.

جـ- القرآن مهيمن على الكتب كلها : يصدق الصادق فيها . . ويصحح ما تناولته يد التحريف . . والقول ما قالت ماحذام .

وإذا توقف الحوار مرحليا . . مع« الذين ظلموا » منهم . . فلكى يستأنف من

جديد .. على أوفى معـانى الإنصاف.. كما تشيـر إلى ذلك الآية الكريمة في سورة العنكبوت : ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُم وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَينَا وَأُنزِلَ إِلَيكُم وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ ﴾ [العنكبوت :٤٦] .

فنحن مأمورون بجدال أهل الكتاب :

بالطريقة .. التى .. هى بالذات .. أحسن الطرق على الإطلاق ..

منشأ الحوار :

إن التنوع والاختلاف ظاهرة كونية . وبشرية.. ودينية كذلك :

أما عن التنوع فى الكون . فيشير إليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ..﴾ [آل عمران : ١٩٠].

وعن تعدد الأديان نقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا .. ﴾ [البقرة:١٤٨] قال ابن عباس :

يعنى بذلك أهل الأديان. يقول أحد الباحثين: [وهذه الآية مرتبطة بقوله تعالى :

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ..﴾ [هود:١١٨] .

﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَـمِـيـعًـا أَفَـأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[يونس :٩٩].

ونفى الإكـراه معناه : منـع المسلمين من إلغاء الأديـان الأخرى بالجـبر والإكـراه والنهى عن الإلغاء يعنى : بقاء التعددية الدينية].

وإذن .. فهناك أديان أخرى .. من حقهـا علينا أن نوصل لها القول .. فلعلها أن تهتـدى .. وإذ لم يهتـدوا به .. فلا أقل من أن يقفـوا موقف الحـياء .. وليس موقف العناد .

فإذا اختاروا العناد سبيلا إلى التشويش علينا .. وإذا لم يؤمنوا بهذه الثوابت التى صرحت بها الآيات الكريمة التى ذكرنا .. فقـد وصموا أنفسهم بالظلم وصارت فكرة مصالحتهم .. محاولة فاحشة .. فأنت تئق .. وأنامئق.. فكيف نتفق ؟

ودعوى المصالحة إذن . . غفلة أو تغافل ينبغى التصدى له . . وبخاصة إذا جاءت المبادرة من مسلم قد يغرى بإسلامه الأغرار . . فيقعون فى الشرك المنصوب .

الحذر من التجربة القاتلة

إن هناك تجربة لا سعة . .وتجربة قاتلة:

التجربة الأولى هى :

أن تلمس الشمعة المضيئة لتعلم ماذا يحدث لك . . وهذه تجربة نافعة . . لأنها معلمة . .أما التجربة القاتلة . . فمثالها : ذلك الذى يطلق على نفسه رصاصة. ليعلم ماذا يحدث؟

إنه سوف يخسر حياته بهذه الحركة الحمقاء . . ولابأس أن تخوض أمتنا التجربة اللاسعة . . النافعة . عن طريق الحوار مع أهل الأديان . .

فنحن مستعدون أن نتعلم من الآخرين كل شىء نافع . . شريطة ألا نتخلى عن ثوابتنا . . وأن يحترم الآخرون ديننا بتنحية الذين يحاولون طمس معالمه . . وتجاهل ما به من إيجابيات . هؤلاء الذين يتحدثون عنا . . من غير أن يستمعوا إلى دليلنا.

واجبنا فى هذا الحوار :

وقد نلخص هذا الواجب - مستفيدين برأى الخبراء - فيما يلى :

١- أن ننقد أنفسنا أولا . . حتى نكون قادرين على نقد غيرنا .

٢- معرفة مالدى الطرف الآخر من إيجابيات . ثم التعرف بهذه الايجابيات .

٣- ثم محاولة تفنيد مزاعمهم . لافتين أنظارهم إلى ما لدينا من إجابيات يمكن أن نتعاون على التمكين لها .

واجب الطرف الآخر :

١- لابد أن يتكفل العلماء هناك بتقديم حقائق الإسلام إلى أهليهم نقية : بلا تخليط . أو تشويش . إن القسس فى إفريقيا مكلفون بتنصير المسلمين . . عن طريق عرض الإسلام عرضا غير أمين . . وفى نفس الوقت يتركون الوثنيين يعبثون . .

والمفروض أنهم هدفنا المشترك . وحرى بجهودنا جميعا أن تتوحد لمواجهتهم . . ومواجهة كل مذهب منحرف هو عدونا المشترك كالشيوعية مثلا، وإذا كان ولابد من تعصب فليتعصب كل واحد منا بالالتزام بآداب دينه بدل أن نخرب بيوتنا بأيدينا . .

٢- التخلى عن عقدة التفوق وإفرازاتها التى تسد طريق الحوار . . ثم التخلص من بعض المواريث التى يتعلقون بها مع علمهم اليقينى ببطلانها .

٣- إذا كان حوار الأديان يعنى : الاعتراف بالرأى الآخر . فلتكن المواجهة إذن حضارية : بالفكر . لا بالسلاح . وبالصراحة . . لا بالمكر .

٤- ثم إن تحقيق السلام يتوقف على تحقيق السلام قبل ذلك بين الأديان .

ولن يتحقق ذلك إلا بحوار هادئ هادف . . لا يطلب منا أن نؤمن بما يناقض أساسيتنا .

٥- وعلى الباحثين هناك أن يعترفوا بالإسلام كدين لا كنظام فقط . . وهو حقه الطبيعى . . كما يعترفون فيه بكل الأديان التى يقرون ببطلانها .

هذا هو واجبهم . . وذلك واجبنا . . لكننا لا نرى على ساحة الحوار من غيرنا ما يؤكد الوفاء بعهد السلام المنشود : فالواقع يؤكد: أنهم يتخذون الحوار ذريعة إلى التسلل فى فراغنا إرادة التمكن منا . . وبلا مقاومة . . لقد اخترعوا لفظ « الحوار» خداعا وتمويها . . وهم يريدون به التفرد والتسلط . . بدليل أنهم لا يريدون فقط أن نعترف بوجودهم . . ولكنهم وعلى لسان حكمائهم يريدون أن نقر لهم : بأن لديهم الأفضل . . فليس هناك إلا دين واحد . . هو المسيحية . . وليس هناك إلا حضارة واحدة . . هى الحضارة الغربية . . وليس هناك إلا نظام واحد . . هو النظام العالمى الجديد . . وفي سبيل ذلك توحد زعماء السياسة ورهبان الكنيسة على تحقيق هذا الهدف . . ولكن الوحدة التى يدعو إليها الإسلام شيء آخر : إنها الوحدة التى يمكن أن تجمعنا . . وإن اختلفنا . . تلك الوحدة التى تعنى : أن يقوم كل منا بواجبه : فمن ناحيتنا : ننفذ ما أمرنا الله تعالى فيهم: نحفظ لهم حقوقهم . . ولا نؤذيهم . .

ومن آذاهم لم يشم راحة الجنة . بل إن المسلم ليقتل بالذمى : ودية الذمى تساوى دية المسلم . ومن ناحيتهم:

أن يوفوا بعهدهم معنا . . فإذا تم ذلك . . كنا صفا واحداً فى مواجهة عدو مشترك هو : الفكر المادى . تنادى به وثنية كاذبة خاطئة .

لا بأس إذن . . فى حوار الأديان . . بمعنى حوار القيم : فعن طريقه تتضح صورة كل طرف لدى الآخر . . فتساقط من عقولنا أفكار مشوهة . . بقدر ما تبرز قيم جديدة يمكن أنه نلتقى عليها . باذلين طاقتنا فى التشييد والبناء . بدل أن نبددها فى حروب . سوف تخصم من حساب المؤمنين . . لتضاف إلى حساب الملحدين .

إننا لا نريد أن نضع خطأ مكان خطأ . . ولا نريد أن ننكر فضل ذى الفضل . . لنضيفه إلى ملة أخرى . . ولكننا نريد إحقاق الحق . وإبطال الباطل . . ودفع الشبه عن الإسلام . .

مناقشة المؤلف

كانت لنا مع المؤلف وقفة سابقة . حول كتاب آخر له . بدا فيه هجّاماً على كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ . بلا أثارة من علم .

ولا يزال – فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا – يمارس هوايته فى الهجوم عليهما . ساعياً إلى الهيجاء بغير سلاح . ولا يكفى هنا العتاب .. وإنما هو : مناقشته الحساب :

حين يشكك مسلم فى صحة الأحاديث الموثقة .. فإنه – فضلاً عن أنه يقدم خدمة مجانية لأعدائنا – يعبر عن ثقته الضعيفة بمصادرنا التى تكفل الحق تعالى بحفظها .. ومن ثم .. ذهب يستجدى مصادر غيرنا .. بل ربما جعلها المهيمنة على مصادرنا : وقد سبقه إلى هذا صاحب كتاب «الفن القصصى فى القرآن» . والذى قال: { والظاهرة التى يحسن بنا الالتفات إليها فى هذا المقام : هى أن القرآن حين جعل هذه الأخبار – أى : التى وردت فى قصصه من آيات النبوة وعلامات الرسالة – جعلها أيضاً مطابقة لما كتب فى الكتب السابقة . أو ما يعرفه أهل الكتاب من أخبار .

حتى ليخيل إلينا – كما يقول صاحب كتاب الفن القصصى .. هذا – أن مقياس صدقها أو صحتها من الوجهة التاريخية .. ومن جهة دلالتها على النبوة والرسالة .. أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار } .

فانظر كيف ضعفت الثقة بالقرآن المهيمن .. حتى تطوع كاتب مسلم بتسليم زمام القيادة إلى كتب ثبت تحريفها ؟.

ونعود إلى المؤلف لنقول له :

ما معنى أن نستجدى التوراة، والإنجيل أمراً فرغ منه القرآن الكريم . والسنة المطهرة . بعدما بيناه للناس بياناً شافياً كافياً يجعل من محاولة الاستجداء هذه افتراض غموض أو نقص فيهما . يصبح فى نفس الوقت اعترافاً .. بل تمجيداً لكتب ثبت تحريفها .. وإن كنا نؤمن بهما كما أنزلهما الحق تعالى على رسله الكرام. لقد جاء ذكر التوراة، والإنجيل معرفين بالألف واللام {العهد} أى: التوراة، والإنجيل المعروفان

لا ما حرف . فإذا طلب القرآن الإيمان بهما . . فإنما هو الإيمان بما لم يحرف وهذا يؤدى إلى الإيمان بالقرآن .

هذا القرآن القائل :

﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ . مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ٣-٤] .

أى من قبل التحريف . . أو من قبل نزول القرآن . الذى نزل مهيمناً مصححاً بل ناسخاً لكل دين قبله . على ما يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح : ٢٨] .

وإذا كانت سورة «الكافرون» قد سمت دينهم «ديناً» . . فقد أضافته إليهم [لكم دينكم] . . فهو دينكم المفصل على قدّكم . أما ديننا فهو وحده الدين . . بلا منازع : [ولى دين] «دين» . . هكذا بالتنكير الذى يشى بسعته . . وشموله . . ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود : ١] ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وإذن . . فلا يجمل بالغنى أن يطلب الشىء من فاقد الشىء . . وإذا كان القرآن فرقاناً . . وكان نوراً . . فكيف تلجأ إلى غيره بعدما فرقت المنصة بين الحق والباطل . . وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ؟!

وإذا كان نوراً . . فلا هداية إلا به . . وبه وحده دون سواه !!

أما قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [الأنعام : ١٥٦] والتى فهم منها أننا مأمورون بدراستهما . . فإن سياق الآية الكريمة هو : إقامة الحجة على أهل مكة . . وقطع عذرهم لو قالوا : كانت التوراة بلغة لانفهمها . . فقيل لهم : هذا هو القرآن : لقد نزل بلغتكم .

ويقول المؤلف : [إن الرسول لم يقل للناس إن رسالته جديدة فى أصلها . ولم يدع أن الدين الذى بعث به دين خاص له . .] .

وإذا كنا نسلم أن أصول الديانات واحدة . . لكن الشرائع مختلفة قطعاً . فكيف يتم التصالح بين دين لا يعترف أهله : لا برسولنا ولا برسالته ؟!!

وماذا يبقى بعد إنكار جوهر الرسالة ذاتها ؟

إنه .. إذا كان من المروءة أن نعفو عمن أساء إلينا .. فليس من المروءة أن نعفو عمن يسيء إلى الإسلام .. وأية إساءة أبلغ من التسوية بين الحق الصراح .. والباطل البواح .. ثم محاولة إرغام أهل الحق على أن يتجرعوا دينا يناقض دينهم تماماً ؟

إن المؤلف هنا يردد المعزوفة التى ابتدعها «جارودى» الذى قال : [إن محمداً لم يدع أنه جاء بدين جديد] وهو بذلك ينكر حقيقة : أن الدين عند اللّه الإسلام .. وأن محمداً ﷺ جاء بدين جديد نسخ اللّه تعالى به كل الأديان : يتحد فى جوهره مع كل الأديان . بيد أنه فى نظمه وتشريعاته شىء فريد جديد .

الإسلام نسخ كل الأديان قبله :

ومعنى أنه نسخ الأديان : أنه دين جديد .. لكن الأمر يحتاج إلى تبسيط ما قرره علماؤنا هنا : إن للإسلام علاقتين باليهودية والنصرانية : علاقة .. قبل التحريف وعلاقة .. بعد التحريف .

أما قبل التحريف : فكل كتاب .. وكل رسول مصدق لما قبله : يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] ولقد كان الإسلام شريعة جديدة .. مضمومة على عناصر الإنشاء والتجديد عبر المستقبل .. وإذا كانت التوراة قد «حددت الحدود» بالعدل .. وإذا كانت المسيحية ارتفعت بالناس إلى أفق الفضل .. فإن الإسلام يجمع بين : العدل .. والفضل : لقد [جاء بالحق وصدق المرسلين] .

أما بعد التحريف :

فقد أضاف القرآن إلى كونه «مصدقاً» أنه : «مهيمن» بمعنى أنه حارس :

أ- يحفظ . ب - يمنع الدخيل . جـ- ويبرز ما أخفاه الحاسدون .

فكيف يقال بعد ذلك : إن الإسلام لم يأت بجديد ؟! وكيف يزعم زاعم اليوم

أن صحــة إيمان المسلم مرهونة بإيمانه بالكتب والأديان قبــله دون تفريق بين المرحلتين؟ بل قد نسب ذلك فعلاً إلى باحث له فى دراسة الأديان باع طويل :

جـ١ نشرت الأهرام فى ٢٨/١/٢٠٠١ ما يلى :

{ إن الاعتراف بجميع الأديان شرط لصحة عقيدة المسلم } .

والخطورة هنا :

أ- أن القائل عالم مسلم متخصص . يمكن أن يكون قوله حجة فى يد غيرنا .

ب- ثم إنه قال ذلك فى مجلس ضم مجموعــة ممن كتموا الحق .. وحرفوا .. وبدلوا؟!!

ألا إن عدم البـيان فى مقام البـيان .. يوشك أن يكون كتمــاناً للحق حذرنا اللّه تعالى منه .. والكفل الأكبـر من هذا التحذير متجه إلى عــالم ينعى على غيره أنه لم يوثق رأيه .. بينما يتساهــل هو فيما لا يجوز فيه التســاهل .. مما يحملنا على القول بأن الخطأ المعفــو عنه .. مع المتعلم .. لا يجوز أن نتـسامح فيــه مع العلم .. حتى يعود إلى الحق الذى تبين .

ثم إن معنى «الدين» مختلف بيننا وبينهم :

أ- فالدين عندهم «عنصر» واحد من عناصر النهضة المتعددة . ولكن الدين عندنا كما قيل بحق : هو «المناخ» الذى تتخلق فيه النهضة [1] وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ .

والآية الكريمة فى سورة «الكافرون» أعلنت فشل أول محاولة للتصالح بين الأديان بســبب من هذا التناقض . لقــد قطع اللّه تعــالى أطمــاعهم فى وفــاق يراد به تمــييع الإسلام.. أجل .. قطع اللّـه أطماعهم فى الحــال .. وفي المآل : فلكم دينكم .. دينكم المضــاف إليكم .. والذى اختــرعتــموه اختــراعاً .. بينمــا لى «دين» .. دين عظيم.. شامل .. كامل .. مطلق .. إنه الدين .. ولا دين سواه .

---

(١) مالك بن نبى .

وكيف لا يختلف دينان قول أحدهما : المسيح هو الله . . أو هو ابن الله . . أهو ثالث ثلاثة بينما يقول الإسلام : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٣] .

ب- ثم إن الدين فى المنظور الإسلامى شامل للحياة كلها . أما عندهم فهو محدود . محجور عليه .

جـ- نحن نؤمن بكل الرسل . . وبكل الكتب . . وليس لهم هذا الإيمان . . فنحن لا نفرق بين أحد من رسله . . ولا بين كتاب من كتبه . . أما هم : فمتعصبون .

د- وإذ يقول الحق تعالى عن محمد عليه الصلاة والسلام [الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل] فهل فى التوراة والإنجيل اليوم ما يشير إلى ذلك ؟

هـ- كيف يتم التصالح المقترح . . وفيهم اليوم من يقول : إن «أمنحتب» هو المسيح و«حتشبسوت» هى مريم البتول ؟!! فمع أية مسيحية نتصالح ؟!

و- إن مسافة الخلف واسعة جداً . . مانعة من التلاقى أو التصالح . . حتى على مستوى الشعائر : فالكنائس والبيع هناك صارت رموزاً . . ولم تصبح دوراً للعبادة .

أما المساجد عندنا :

فهى للعبادة . . بل هى منطلق أمتنا إلى عمارة الحياة فى كل مناحيها .

ز- وبناء على ذلك فإن محاولة التصالح بين الإسلام وغيره من الأديان . . وإن شئت قلت : «فإن محاولة التطبيع» هذه مرفوضة لأن «المصالح» فى النهاية سوف تتصالح . . لتكون النتيجة النهائية لصالح المبطل . . الذى سوف يستغل هذا التصالح لتحقيق مآرب أخرى تنتهى كلها بالتشويش على الإسلام . . وتقييد خطاه حتى لا يأخذ مكان الصدارة مهيمناً على الدين كله .

لقد ذهب حاخامات اليهود إلى «مؤتمر حوار الأديان» بالمغرب وهم يحملون . . يحملون لا بدولة ذات حدود سياسية «من النيل إلى الفرات» . . ولكنهم يمنون

أنفسهم بالدولة التلمودية . . أعنى الدولة المقدسة والتى تكون إقامتها عبادة يتقرب بها إلى اللَّه تعالى وهم فى نفس الوقت يواكبون ما يعلنه المتعصبون من النصارى والذين يتنادون بضرورة إعادة تنصير العالم .

ويعنى ذلك : أنه قد ذهب إلى مؤتمر الأديان من لا يعترفون بالأديان . . على ما يقول سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : ١٨] .

إنهم لا يؤمنون : لا بالآخرة . ولا يـؤمنون بالأجر . . بل إن فريقـاً منهم يبيح لنفسه أن يدمر الآخر ليبنى على أنقاضه مجده الذى يحلم به . . وذلك قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٥] .

الأمر الذى بسببه يحذرنا القرآن الكريم أن نكون مثلهم وذلك قوله تعالى :

﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد : ١٦] .

ومن المؤسف حقاً أن يقـرر القرآن الكريم هذه الحقائق الواضحـة الدامغة . . فى الوقت الذى نرى فيه بعض المسلمين يلحون أن نكون مثلهم ! .

وفى الوقت الذى نسمع فيه من يحسن الظن بأصحاب هذه الدعاوى مقترحين ألا نصادر كتبهم . . بل نرفض فقط بعض أفكارهم منبهين على فسادها . .

إننا مطالبون فقط بإحسان الظن بالمخـلصين من علمائنا . . أما من يفسر الآية أو الحديث محكومـاً بهواه . . فهو مخطئ وإن أصاب ! فى الوقت الذى يصـير الباحث المخلص مصيباً . . وإن أخطأ !! بمعنى أن المجتهد له نصيب من الأجر فى النهاية وإن لم يصب الهدف . . فكيف بعد ذلك نسمح بأن يدخل ساحتنا من يدعو إلى التصالح بين الذئب والضـحية؟. إننا لا نحـجر عليـه بهذا المنع . . وإنما هو حـماية السـاحة الإسلامية أن يعكر صفوها . . غافل . . أو متغافل !

إنه التصالح المرفوض :

لأنه دعوة إلى الوحدة الدينية - مع هذا الاختلاف البين - كتلك الدعوة المطروحة الآن : إلى تكوين «الحكومة العالمية» الرامية إلى تذويب .. الوطنية وتذويب «الدين» فى بحور مؤامرات دولية متلاطمة الأمواج .. يراد للمسلم بالذات أن يخرج منها بلا هوية وبلا شخصية .. وإذا بقى مسلماً .. بقى باهت السمات .. مائع الملامح .

ثانياً :

الإعلام المادى يروج اليوم الفكرة .. الواقعية .. والتى تعنى لديهم : اطرح الأديان والمذاهب .. والاتجاه إلى الواقع الذى يغنينا عن هذا التراث البائد .. فإذا رحت تتلمس هذا الواقع الذى يريدون راعك ما ترى من حرصهم على أن تكون الواقعية هى الدين الجديد .. الذى يراد انفراده بالساحة .. دون بقية الأديان .. والإسلام وأهله .. بالذات !! إنهم يزعمون أن قيم .. الحرية .. والديمقراطية والإبداع .. كلها قيم علمانية تنويرية .. فتتراجع الأديان .. بل ليتراجع الإسلام بالذات فليس له فى هذا المعترك ناقة ولا بعير !

ودليلنا على أنهم يريدون تنحية الإسلام بالذات :

أ- موقف فرنسا من المفكر الإسلامى «جارودى» والذى ناصبته العداء .

ب- وأخذ «سلمان رشدى» مثلاً يؤكد لك ما نقول : لقد اختار الهجوم على الإسلام بالذات .. ولم يهاجم ديناً آخر .. لأنه يعرف النتيجة سلفاً !!

بل لقد بلغ العداء مداه .. حين قوبل إحساننا إلى المسيحية . بإساءة أهلها : يقول الدكتور عبد الحليم محمود : [إن الإسلام منذ بدأ .. خالف الجو اليهودى والوثنى فى أمر عيسى عليه السلام . وأمه البتول . ووجودهما جزء من إيمان المسلم. وبراءة أمه الطهور جزء من إيمانه .. على عكس موقف اليهود العدائى منهما . إذا رموهما بكل إثم شنيع .

فماذا لقى المسلمون من المسيحين بعد هذا الاعتراف ؟

إننا نرى للأسف طوائف التبشير المسيحى .. تنتقل فى آسيا وأفريقيا لا لتنصير الوثنيين . بل لتنصير المسلمين .. وإثارة بذور الشك فيما يعتقدون .

وكل الدول الغربية . وأمريكا .. ترسل الإرساليات المتتابعة لهذه الغاية . بأسلوب مكشوف مسموم . وبأسلوب مستتر تارة أخرى .. مع أن الدول الإسلامية ليس لها إرساليات تبشيرية على الإطلاق .

وقد ترك النصارى اليهود يشتمون ويسبون عيسى، وأمه دون أن يحاولوا حتى مناقشتهم ؟!

ولو حصروا نشاطهم فى هداية الوثنيين لكان لهم بعض المنطق . ولو جادلوا اليهود بالتى هى أحسن .. لكانوا يؤدون واجب الدفاع عن دينهم . ولكنهم لا يحاربون غير المسلمين .. فكيف نصدق ما يقال عن الصداقة بين المسيحية والإسلام؟!!

إن المسلمين – فى المؤتمرات – يتحدثون عن المسيح بكل الاحترام والإجلال على حين نسمع فى الوقت نفسه .. وفى المؤتمر نفسه .. من يتحدث عن رسول الله ﷺ بكل سوء ؟ وإذن .. فلن يكون المؤتمر وسيلة اتفاق .. بل وسيلة شقاق .

إن الإسلام كان العامل الأكبر فى تثبيت النصرانية .. حين اعترف بنبوة المسيح . وحين برأ أمه الطاهرة .. ومع هذا .. فهو يقابل بجحود لا مثيل له . فهل يمكن التفاهم مع هذا؟ } .

لا يمكن أن يكون تفاهم .. ولا تصالح .. كيف وهم يقولون : لقد فتت العقل الذرة . وإذن .. فلا وحى .. ولا دين .. بمعنى أن الدين قد فتت مع الذرة أيضاً؟ ثم مضى العقل المغرور منفلتاً من قيم السماء يحاول فرض حضارة معينة على العالم كله ؟ حضارة : يراد لها أن تسود . وأن تقول للعالم الحروب إلى حيث شاء لها هواها . حضارة صار فيها الإنسان : إنساناً .. وإلهاً فى نفس الوقت ! .. يمضى وراء عقل بلا دين .. وعلم .. بلا هدف .. حضارة لا تضرب فقط بالصاروخ ..

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٣
الفصل الأول من ضوابط الحوار	٥
مدخل	٦
ضرورة الاختلاف	١٣
كيف يعاملنا خصومنا ؟	١٦
من حيل المعاندين	٢٥
من أعمالهم سلط عليهم	٣٠
إلينا أيها الحائرون	٣٨
أمتنا بين النصيحة والانتصاح	٤٤
الفصل الثانى من سلبيات الحوار	٥٥
من سلبيات الحوار الغرور	٥٦
تحرير الحوار من آفة الغرور	٥٩
حوار القمم	٦١
من صور الجدال بالتى هى أحسن	٦٤
طبيعة الحوار ومستويات المدعوين	٦٧
الفصل الثالث حوار أهل الكتاب والمشركين	٧١
طبيعة الجدال مع أهل الكتاب	٧٢
موقف الإسلام من أهل الكتاب	٧٥
من حيل العلماء	٨٠
سنة الاختلاف	٨٥
صلة المسلم بالعلماء والأمراء	٨٩
من أهداف المبطلين	٩٢
من آداب الحوار	٩٧
تأملات فى سورة الأنعام	١٠٤
القضية وأبعادها	١٠٦
من تصحيح المفاهيم	١٠٨
البرهان العملى	١١٥
توظيف خاطئ لمواهب الفطرة	١١٨
قتل الأولاد والوفر النسبية	١٢١
نقد كتاب أسماء الله وصفاته	١٢٩
حوار الأديان وليس مصالحة الأديان	١٣٠
مناقشة المؤلف	١٣٥